منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية سلسلة دارسات تاريخية -

الحياة العلمية في جبل نفوسة

وتأثيراتها على بلاد السودان الغربي (خلال القرون 2-8 حتى 8-14م)

تأليف : محمود حسين كوردي





مؤسسة تاوالت الثقافية 2008
http://www.tawalt.com/

كلمة شكر وتقدير

إن هذا العمل التاريخي في أساسه كان دراسة علمية قدمت لنيل الدرجة العالية (الماجستير) بجامعة الفاتح. وبعد إطلاع الأستاذ الفاضل الأديب علي مصطفى المصراتي على هذا العمل. شجعني على نشره. كما اطلع عليه أيضا الأستاذ الفاضل عمار جحيدر الذي كانت له بعض التوجيهات. وشجعني هو الآخر على نشر هذا العمل وطباعته فلهذين الأستاذين أتقدم بخالص شكري وجزيل امتناني. فقمت بتنقيح الدراسة وحاولت قدر الجهد أن أضيف إليها معلومات ومواضيع أخرى تتماشى والسياق العام للدراسة. كما لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل والاحترام العميق لأستاذي الفاضل الدكتور الهادي المبروك الدالي الذي تولى الإشراف على هذه الدراسة وتعاهدها بالرعاية والتوجيه منذ أن كانت فكرة بسيطة حتى صارت ما هي عليه الآن. كما أعاود شكري مرة أخرى للدكتور الهادي الدالي للفت انتباهي لهذا الموضوع في مرحلة الليسانس عندما كلفني كتابة بحث عن أعلام جبل نفوسة. فأسأل الله الكريم أن يطيل عمره في الخير والبركات وأن يجزيه عن العلم وأهله خيرا. والشكر موصول للدكتور خليفة البديري لمراجعته اللغوية لهذه الدراسة.

كما أوجه خالص شكري إلى جميع الأساتذة الذي علموني ودرست على أيديهم في مختلف مراحل تعليمي واخص منهم الأساتذة الأجلاء في مرحلتي الجامعة ودبلوم الدراسات العليا.

وهنا أريد أن أسجل عميق الشكر والعرفان للجنود المجهولين بمختلف المكتبات الليبية واخص منهم موظفي: مكتبة مركز الجهاد للدراسات التاريخية، ومكتبة المعهد العقائدي بطرابلس، ومكتبة كلية الدعوة الإسلامية، ومكتبة السراي الحمراء، ومكتبة دار نويجي للثقافة، ومكتبة مصطفى قدري معروف، ومكتبة الآداب بجامعة الفاتح، والمكتبة القومية المركزية، والمركز الليبي التونسي بطرابلس.

وأحب أن أقدم الشكر والامتنان الكبير لعائلتي الكريمة لما قدموه لي من نصح وتشجيع وعون واخص زوجتي الفاضلة التي عانت كثيرا من ظروف كتابة هذه الدراسة فجزاها الله العلي القدير عن صبرها وعونها خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أسجل هنا أيضا شكر خاص وعميق إلى أولئك الإخوة الأعزاء من أهالي قرى ومدن الجبل الحبيب الذي قدموا لي مساعدات كبيرة وجمة عند تجوالي في ربوع المنطقة من اجل تجميع المادة العلمية، وتوثيق المعالم التاريخية والأثرية بالصور الضوئية وفي الحقيقة كان لمعونتهم اكبر الأثر على هذه الدراسة وهم: الأستاذ سليمان عمرو يحمد، والأستاذ الهادي النامي، والأستاذ يحيى المقدمي (من نالوت)، والأستاذ على منصور، والأستاذ عبد الله بورقيبة والأستاذ خليفة العزابي (من فرسطا)، والأستاذ إبراهيم صكوح، وابنه أيمن صكوح، والأستاذ سعيد طرف (من كباو)، والأستاذ محمد الهوفاري (من طمزين)، والأستاذ عمر المرعوش والأستاذ علي نزنوز (من تملوشايت)، والأستاذ إمحمد صالح التندميرتي (من تندميرة)، والأستاذ موسى شاكير (من مرقس)، والأستاذ عمر أيوب (من تترغت)، والأستاذ احمد الساق (من أم الصفار)، والأستاذ عمر عبازة (من جريجن)، والأستاذ علي حامد لطيف (من زعرارة: البدارنة الشرقية)، والأستاذ أبو بكر احتيوش (من دجي: البدارنة الغربي)، والأستاذ صلاح مسعود الدبلي (من ونزيرف)، والأستاذ داود القلال (من إيجناون)، والأستاذ عادل الطرميسي (من طرميسة)، والأستاذ علي قليزة (من جادو)، ولهؤلاء جميعا دين في علي لما قدموه لي من مساعدات جمة فجزاهم الله خير الجزاء وأحسن إليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن المتتبع لتاريخ ليبيا الإسلامي يجد صعوبة في الوصول إلى غايته من المعلومات التاريخية، وتتضح هذه المسالة بصورة اكبر إذا كان المطلوب يختص بالدراسة الجزئية أي: دراسة بعض الأقاليم، وهذا ما يتضح من دراسة تاريخ جبل نفوسة الذي يعد جزءا من تاريخ بلاد المغرب الكبير.

كما نلاحظ اهتمام الباحثين بدراسة التاريخ السياسي وإهمالهم للجوانب الثقافية والعلمية التي تعد جد مهمة في حياة الإنسان خاصة إذا ما توفرت بعض المصادر الأولية التي تؤكد على ذلك. كما أن اغلب الدراسات الحديثة تكاد لا تلتفت إلى هذه المنطقة في آية مرحلة من مراحلها العلمية، أو دورها في نشر الإسلام واللغة العربي، حيث كان لأهلها دور بارز في هذا المجال، من هنا انصب اهتمامي على منطقة جبل نفوسة من حيث نشاطها العلمي والثقافي الذي كان على قدر ملحوظ من الأهمية والبروز، وهذه المنطقة ضمن المناطق والبلدان التي كانت نهضتها العلمية والفكرية - خلال العصور الوسطى- أساسا تحت مظلة الحضارة الإسلامية، لان الدين الإسلامي كان الحافز الرئيسي للاعتناء بالثقافة والفكر، واللغة العربية هي الأداة التي أتقنها سكان جبل نفوسة وعبروا بها عن حضارتهم وآدابهم، فبلغة القرآن كتبت اغلب المؤلفات والمصنفات، وبذلك صارت المنطقة رافد من روافد الحضارة الإسلامية، وساهمت بدور بالغ في بناء تلك الحضارة، ووصل تأثير الحياة العلمية بالجبل إلى المناطق المجاورة مثل: (غدامس، وفزان، وبلاد الزاب، وجزيرة جربة، وبلاد الجريد التونسي، وبلاد المغرب الأوسط)، وبلدان أخرى بعيدة عن منطقة جبل نفوسة مثل: (بلاد السودان الغربي) والأوسط.[1]

1 - تشمل هذه التسمية اليوم للدول الآتية: السنيغال، وبوركينافاسو، وغانا، ومالي، وشمال نيجيريا، والنيجر، وتشاد.

وبعد جبل نفوسة (الجبل الغربي حاليا)، هو امتدادا جغرافيا لسلسة جبلية طويلة تبدأ من جبل درن بالمغري الأقصى (جبل أطلس)، مرورا بالمغرب الأوسط حيث (جبال الأوراس)، ثم جبل دمر ومطماطة بالمغرب الأدنى، الذي ينتهي بجبال طرابلس وتسمى مسافة منها بجبل نفوسة ، وسكن الجبل عدة قبائل عرفت بـ (الأمازيغ) أو البربر[1] وتضاربت الآراء حول أصولهم، وتشعبت وجهات النظر في ذلك الأمر.

وكان للبيئة الجغرافية التي يتميز بها جبل نفوسة، تأثير على حياة السكان الحضارية، فأنشأوا القرى والمدن وعرفوا الزراعة على ضفاف الوديان وحول العيون، كما اشتغلوا ببعض الصناعات المحلية التي تخدم حياتهم اليومية، وتعاقبت الأديان على الجبل وتعاصرت، فمن الوثنية (عبادة الشمس والقمر)، إلى اليهودية ثم المسيحية، وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عامة ومنها (منطقة الجبل)، اعتنق الأهالي الإسلام، واجتهدوا في أتباع تعاليمه السامية التي تدعو إلى طلب العلم والأخذ بأسباب المعرفة، وهو ما أفضى بأهالي الجبل شيئا فشيئا إلى العناية بهذا الجانب من الحياة الفكرية والعلمية، حيث قام عدد من أبنائه بالرحلات العلمية من اجل طلب العلم في مختلف بلاد العالم الإسلامي (خاصة المشرق العربي) الذي استفادوا منه على نحو أوسع في نقل العلوم الإسلامية والعربية وكذلك طرق التدريس ومناهجه، إذ كانوا يعمدون إلى نشر ما تعلموه واكتسبوه بمدن وقرى الجبل بعد عودتهم. وقد بلغ بهم الحرص على التعلم والتحصيل في تلك الفترة أن بعض المعنيين بهذا الأمر من الجبل كانوا يترصدون السابلة من العرب القادمين من المشرق إلى بلاد المغرب لتلقي سور القرآن منهم على الألواح لدراسته وحفظه، وبذلك توفرت الظروف لإنشاء (الكتاتيب) المعدة لتحفيظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، كما قامت المساجد بذلك الدور التعليمي، ثم تطورت بعض الكتاتيب إلى مدارس (وسطى، وعليا) في فترات تاريخية لاحقة، وأسهمت تلك المراكز التعليمية جميعها في ظهور العديد من العلماء والفقهاء الذين اضطلعوا بعبء كبير في حركة النهضة العلمية، تعليما وتدريسا، وتأليفا في مختلف العلوم والفنون، فأنشئت المكتبات (الخاصة والعامة)، مما ساعد على إنجاح الحياة الفكرية واستمرارها، ولم يقتصر التعليم على الرجال بل أسهمت المرأة أيضا في الحياة العلمية، وبلغتن بعض النساء درجة من العلم والتفقه في شؤون الدين إلى درجة الاجتهاد.

1 - أطلق الرومان هذا الاسم على سكان بلاد المغرب الكبير واعتبروا كل الخارجين عن الحضارة الرومانية برابرة أي: متوحشين وهمجيين. وهذا طبعا لا يتأتى قبوله مع تلك الشواهد الأثرية والتاريخية التي تؤكد على الحضارات القديمة التي ظهرت في بلاد المغرب الكبير، للمزيد انظر: رشيد الناضوري، تاريخ المغرب الكبير، ج1، بيروت: دار النهضة العربية، 1981، ص 51-113.

وقد ارتبطت منطقة جبل نفوسة ببلاد السودان الغربي بالعديد من الروابط والصلات (الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية) التي تمت بجذورها إلى فترات بعيدة تسبق الفتح الإسلامي لبلاد المغرب كافة، وكانت هذه الصلات والعلاقات بارزة ومتمثلة في التجارة التي تربط بين أواسط وغربي أفريقيا وبين سواحل أفريقيا الشمالية عن طريق مجموعة من الواحات التي تعد محطات للقوافل التجارية.

عرفت مناطق بلاد السودان الغربي ظهور وتأسيس عدة ممالك وإمبراطوريات منها: (إمبراطورية غانا الوثنية، ومملكة الصوصو، ومملكة مالي الإسلامية، ومملكة السنغاي وغيرها)، ولم تشكل الصحراء الكبرى حاجزا وعقبة إمام التواصل الحضاري بين المنطقتين، فقد تمكن أهالي الجبل من الوصول إلى تلك الممالك والتعامل معها تجاريا وثقافيا واجتماعيا.

وعلى ذلك يمكن القول أن الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها في بلاد السودان الغربي خلال القرون (2-8هـ/8-14م) جديرة بالدراسة والتحليل، وهو ما يسعى هذا البحث إليه من خلال دراسة تحليلية وصفية.

وتستهدف هذه الدراسة معرفة العوامل والأسباب المؤدية إلى ازدهار الحياة العلمية في منطقة جبل نفوسة، وكيفية بروز العدد الهائل من العلماء والفقهاء والعالمات في مختلف العلم والفنون، والوقوف على دور العرب المسلمين الفاتحين للمغرب، في نشر الإسلام واللغة العربية في بلاد المغرب الكبير، ومن ثم دور علماء المشرق العربي في ازدهار الحياة العلمية في جبل نفوسة، والتفسير الشمولي العام للنهضة العلمية بالجبل ودورها في نقل المؤثرات الثقافية إلى منطقة السودان الغربي، والوقوف على دور المؤسسات التعليمية (المساجد- المدارس- المكتبات) في توفير مناخ علمي ساعد على النهوض بالحركة العلمية والثقافية في المنطقة.

والتركيز على علاقات منطقة جبل نفوسة بالمشرق العربي الإسلامية ودور الأخير في النهوض بالحياة العلمية في الجبل من خلال التبادل الفكري والثقافي، وكون المشرق العربي مهبط الديانات السماوية، ومنشأ الحضارات البشرية، ومعرفة وتحديد الزمن التاريخي لبعض الأحداث التاريخية، وكذلك لظهور الأشخاص والأعلام، وتحديد موقع القرى والمدن (ذات العلاقة بالبحث) جغرافيا، ووصفها من خلال زيارتها والوقوف عليها وتوثيقها بالصور، وإبراز مكانتها العلمية، وفهم العلاقات بين الأحداث التاريخية، ومعرفة وجوده ارتباطها بعضها ببعض من حيث التتابع والاتفاق الزمنيين، وذلك سواء

ما يتعلق بالحركة العلمية بالجبل، أو من ناحية تأثيرها العلمي والثقافي في بلاد السودان الغربي، وملاحظة التطورات في الحركة العلمية عبر التغير في الزمن والإنسان.

منهج الدراسة:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي النقدي الاستنباطي إذا لزم الأمر تحليل النصوص التاريخية، بالإضافة إلى المنهج الوصفي عند وصف القرى والمدن.

أهم مصادر الدراسة:

اعتمدت في هذه الدراسة على العديد من المصادر المخطوطة والمطبوعة، فمن المصادر المخطوطة: (مخطوطة السيرة وأخبار الأئمة) الأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الوارجلاني ق (5هـ/11م) وهي من أقدم المخطوطات التي تناولت الأحداث التاريخية للجبل، ومخطوطة: (سير أبي الربيع) لأبي الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني، ق (6هـ/12م) ويعد كتابه من الكتب السيرية التي تهتم بتراجم الرجال، فتناول آثار علماء الجبل وأشاد بأهميتها.

ومخطوطة: (سيرة أهل نفوسة) لمؤلفه مقر بن محمد البغطوري (أنهى تأليف كتابه سنة 599هـ/1202م) وهو من علماء القرن السادس،واهتمت هذه المخطوطة بالأحداث التاريخية للجبل والمناطق المجاورة مثل: طرابلس وجربة والقيروان وغدامس وغيرها، كما اهتم مؤلفها بسيرة علماء الجبل، ويؤخذ عليها أن صاحبها لم يهتم بذكر التواريخ للأحداث، ولم يحافظ على التسلسل الزمني للأحداث، وهذا مما يزيد مهمة الباحث صعوبة بالإضافة إلى اختصاره الشديد في سرد المعلومات، غير انه يذكر معلومات جد مهمة ونادرة مثل تطرقه إلى نشاط تجار وعلماء الجبل في نشر الإسلام في بلاد السودان، كما انه يعرض الكثير من الآراء في بعض المسائل ثم يقوم بترجيح أقواها حجة على الأخرى.

ومخطوطة: (الألواح) لمؤلفها احمد بن محمد بن بكر الفرسطائي (ت 504هـ/1111م)، وهي تتناول مواضيع في الفقه، كما تهتم بالترجمة لعدد من العلماء وسيرهم العلمية والثقافية، ومخطوطة: (أصول الدينونة الصافية) لمؤلفها عمروس بن فتح المساكني عاش خلال ق (3هـ/9م)، وهي في علم الكلام وتبين المستوى الذي وصل إليه علماء الجبل في علم الكلام في ذلك الوقت المبكر، وكتاب: (الجواهر المنتقاة) لأبي القاسم بن إبراهيم البرادي (ت 810هـ/1407م)، وهو مطبوع طبعة حجرية، ويهتم بتاريخ الجبل وخاصة بالمؤلفات التي صنفها علماء الجبل. وكتاب: (السير) لأحمد الشماخي (ت 928هـ/

1521م)، وهو مطبوع طبعة حجرية، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب والمصادر ألفه احد علماء ومؤرخي الجبل، واهتم بسرد العديد من الأحداث التاريخية في مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية، واهتم بتتبع علماء الجبل ودراساتهم ومؤلفاتهم، واهم أعمالهم، ولا غنى لدارس تاريخ المغرب الإسلامي عن دراسة كتابه والاعتماد عليه، ويؤخذ عليه عدم اهتمامه بتحديد الفترة الزمنية للأحداث التاريخية، وهذه المسالة لوحظت في اغلب المصادر الإباضية.

ومخطوطة: (قصور جبل نفوسة) لإبراهيم سليمان الشماخي (1310هـ/1892م) وهو مطبوع طبعه حجرية وهذا المصدر يهتم بجغرافية الجبل وكذلك يعتني بالدروب ومسالك جبل نفوسة، كما يسرد العديد من المعلومات الاجتماعية، ويشير للكثير من المواضع والأماكن التي لها إسهام علمي وحضاري في الجبل.

ومن المصادر المطبوعة، كتاب: (بدء الإسلام وشرائع الدين) لمؤلفه ابن سلام الإباضي، (ت 273هـ /887م) ترجمة وتحقيق: شفارتز وسالم بن يعقوب، ويعد هذا المصدر من هذا المصدر من أقدم المؤلفات التاريخية في المغرب، اهتم فيه بذكر بعض علماء الجبل وهو الذي اعتمد عليه اغلب مؤرخي الجبل فيما بعد كالوارجلاني والوسياني، والبغطوري، والدرجيني، والشماخي وغيرهم.

وكتاب: (الطبقات المشائخ بالمغرب) لأحمد بن العباس الدرجيني (ت 750هـ/1349م)، ويعد هذا المصدر من المصادر الهامة والجيدة من حيث الأسلوب واللغة وكذلك لغزارة المعلومات، فاهتم الدرجيني بالحياة العلمية في جبل نفوسة، فيذكر ابرز العلماء والفقهاء الذين أسهموا في نشر العلم وتدريسه.

وكذلك استفدت من المؤلفات الجغرافية وكتب الرحالة مثل كتاب: (البلدان)، لأحمد اليعقوبي (ت بعد سنة 292هـ) وكتاب: (المسالك والممالك) ربي عبيد البكري (ت 487هـ/ 1094م) الذي تناول منطقة جبل نفوسة وتحدث عن المسافات وأبعادها الخاصة بالجبل مع المناطق الرئيسية الأخرى، كما تناول أهم مدن الجبل وبين أهميتها السياسية والاقتصادية، وكتاب: (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) لأبي عبد الله محمد الإدريسي الذي فرغ من كتابه عام (548هـ/1154م)، كتبه لملك صقلية النورماني روجار الثاني، اهتم فيه بالمسالك الإستراتيجية، وأنواع النشاط الاقتصادي (تجارة-زراعة-صناعة)، كما عني في كتابه بالتضاريس والأبعاد والموانئ البحرية، ويعد من المصادر الهامة لمن يتعرض لجغرافيا العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى. وكتاب: (مسالك الأبصار في ممالك

الأمصار)، لابن فضل الله العمري، ألفه في (738هـ/1337م)، وفيه معلومات وفيرة عن مناطق الدراسة.

وكتاب: (وصف أفريقيا) لمؤلفه الحسن بن محمد الوزان، من مواليد مدينة غرناطة قام بعدة رحلات في البلدان الإسلامية ومنها دول الغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي والأوسط، ووصفها في كتابه المذكور.

قسمت الدراسة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، الفصل الأول وهو يمثل (المدخل التمهيدي) للفصول التي تلته، وتناول جغرافية منطقة جبل نفوسة (التحديد الجغرافي للجبل)، كما عني بالتطور الحضاري للمنطقة قبل الإسلام وتطرق إلى موضوع الفتح الإسلامي لمنطقة الدراسة بالإضافة إلى الاهتمام بالأحداث التاريخية في مختلف الجوانب: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية بصورة موجزة.

أما الفصل الثاني: فكان بعنوان (الحياة العلمية في جبل نفوسة) فتناول المؤسسات التعليمية بالدراسة، وإبراز دور أهم المساجد والمدارس والمكتبات في نشر العلوم والثقافة بين ربوع الجبل، بالإضافة إلى دراسة للمراحل التعليمية ومناهجها الدراسية، وطرق التدريس المتبعة في الجبل حينذاك وكيفية منح الإجازات العلمية.

أما الفصل الثالث: الموسوم بـ (جهود علماء جبل نفوسة ودورهم في إثراء الحياة العلمية)، فقد اهتم بدراسة ابرز العلوم والفنون التي كانت محل عناية العلماء واغلبها في الدراسات الدينية الإسلامية، واللغوية والأدبية، وتطرقت إلى العلماء والفقهاء الذين ظهروا من ق (2-8هـ/8-14م) متتبعا لسير حياتهم واهم أعمالهم ورحلاتهم، وآثارهم العلمية في المنطقة، كما عني هذا الفصل أيضا بدراسة لأهم المؤلفات والكتب التي الفت في الجبل وقتذاك وإبراز أهميتها في الحياة العلمية.

أما الفصل الرابع المعنون بـ (التأثيرات العلمية والثقافية على بلاد السودان الغربي)، وتطرق إلى جغرافية بلاد السودان الغربي، ودراسة التطور السياسي للمنطقة عبر نشوء عدة ممالك وإمبراطوريات منها: (غانا- الصوصو-مالي)، كما درس العلاقات والصلات بين جبل نفوسة وبلاد السودان الغربي، وطرق القوافل التجارية التي تربط بين المنطقتين، كما تطرق الفصل إلى قضية التأثير والتأثر في النواحي الثقافية والدينية).

وفي النهاية كانت خاتمة الدراسة وقد تضمنت ابرز النتائج التي تخص موضوع البحث (الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراته على بلاد السودان الغربي في نقاط مختصرة.

ومع ما في هذه الدراسة من متعة البحث فقد واجهتها العديد من الصعاب والعقبات، وسبب ذلك إنها ترجع إلى فترة تاريخية مبكرة من العصور الوسطى. وقد ضاع الكثير من المخطوطات والمصادر التي تناولت تلك الحقبة التاريخية لأسباب متعددة. بالإضافة إلى قلة المعلومات التاريخية المتعلقة بالجبل بسبب كون اغلب المصادر التاريخية وخاصة المخطوطات (المحلية)، ما زالت حبيسة الخزائن الأهلية في الجبل ! بالإضافة إلى تشتت باقيها في أقطار مختلفة من بلاد المغرب الكبير. ولذلك قمت بعدة زيارات ورحلات متكررة إلى منطقة البحث لجمع المادة العلمية والتاريخية المشتتة بين بعض أهالي المنطقة، ولزيارة القرى والمدن التاريخية والوقوف على أماكنها جغرافيا، وتحديد أبعادها ومسافاتها عن بعضها البعض، ومعرفة ابرز معالمها الأثرية العديدة ذات الصلة المباشرة بموضوع الدراسة وتوثيقها بالصور الضوئية، وأسفرت عن خمس رحلات ميدانية (علمية)، كانت على النحو الآتي:

1 - الرحلة الأولى: وكانت خلال أيام: (10-2004/2/16م)، قصدت فيها (مدينة نالوت)، التي تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 300 كلم، وهي من المدن الكبيرة بالجبل وتقع في أقصى غربه. ومن أهم معالمها التاريخية: المدينة القديمة (الأثرية)، والقصر، ومصلى الشيخ محمد بن عبد الله بن جلداسن اللالوتي ق (4هـ/10م)، ومسجد الشيخ أبي زكريا يحيى بن سفيان اللالوتي ق (4هـ/10م)، ومسجد الشيخ أبي زكريا يحيى بن درناز اللالوتي ق (4هـ/10م)، ومسجد تيندرار، الذي لم اعثر على تاريخ تأسيسه، ولا مؤسسه. كما زرت عين تغليست بوادي تالة الشهير وما زالت مياهها جارية إلى اليوم. ثم توجهت في نفس الرحلة إلى: (قرية فرسطا)، القريبة مكن مدينة كباو، وتبعد عن طرابلس حوالي 270 كلم، ومن ابرز معالمها التاريخية: القرية الأثرية وهي على قمة جبل عالي، وفي أعلى القمة يوجد قصر فرسطا، وتحيط به مباني ومساكن الأهالي كإحاطة الاسورة بالمعصم متدرجة نزولا من الأعلى إلى الأسفل، حيث مسجد العالم والداعية الشيخ أبي يحيى الفرسطائي، الذي ساهم في نشر الإسلام في منطقة السودان الغربي.

2 - الرحلة الثانية: وكانت خلال أيام: (1-2004/4/7م)، توجهت فيها إلى (مدينة جادو وقراها القديمة)، التي تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 180 كلم، وتقع في وسط الجبل وهي من أهم مراكزه الحضارية، ومن القرى التي زرتها بجادو: (ايجناون، وتموجط، ويوجلين، وتلات اميران، وأوشباري، وطرميسة، ومزغورة، وجماري، وتندباس، وتمزدا، ومزو، وارجان، وتوكيت)، وتحوي هذه القرى على أروع الآثار من مباني ومساكن للأهالي، ومساجد أثرية ترجع إلى عصور مبكرة من التاريخ الإسلامي، منها على سبيل المثال: (مسجد عبد

الحميد الجناوني) ق(3هـ/9م)، بقرية ايجناون، وهو للأسف الشديد تم هدمه من قبل الأهالي عام 1972م وذلك لغرض بناء مسجد حديث، ولم يبق من المسجد الأثري سوى جدار ما زال يزوره البعض من سكان الجبل بقصد التبرك. وفي مدخل قرية طرميسة يقابلك على اليمين مسجد اثري لشيخ وعالم جليل من علماء الجبل وهو: (مسجد الشيخ أبو موسى عيسى الطرميسي)، ق (7هـ/13م)،وربما بجواره أو بهذا المسجد كانت مدرسة الشيخ المذكور الشهيرة بكثرة طلابها وتلاميذها، وفي أعلى قمم جبل جادو تقع قرية مزغورة المشهورة بشخيها صاحب المسجد الأثري فيها: (الشيخ أبو زيد المزغورتي)، ق (7هـ/13م).

3 - الرحلة الثالثة: وكانت خلال أيام: (23-2004/4/27م) وفي هذه الرحلة رجعت مرة أخرى إلى الناحية الغربية، وتحديدا (المدينة الحرابة وما حولها) ولاتساع هذه المنطقة زرت في هذه الرحلة القرى والمدن على أمل أن ازور الأخرى في منسبات لاحقة،وبالفعل زرت قريتي: (زعرارة ودجي)، في هاتين القريتين لاحظت عدم تواجد واستمرارية سكانها الأصليين ربما هاجروا في فترات قديمة لظروف لن نعثر على معلومات تاريخية حولها.[1] وما زالت آثار القريتين قائمة منها قصر زعرارة ومن حوله المباني في أعلى قمة جبل زعرارة، وكذلك قصر قرية دجي، ومن معالم الأخيرة أيضا: (مسجد الشيخ شيبة الدجي، مسجد الشيخ أبي عثمان المزاتي) وفي هذه الرحلة أيضا قمت بزيارة (المدينة شروس)، التي تعد من اكبر مدن الجبل وكانت تمثل العاصمة وقتذاك ، وهي تشغل مساحة جغرافية كبيرة ويتضح ذلك من خلال ترامي أثارها، وهي متحصنة بين ثلاثة جبال عالية، ومن معالمها التاريخية: (مسجد ومدرسة الشيخ ويدران بن جواد أبو معروف)، وهو المبنى الوحيد تقريبا الذي ما زال قائما في المدينة، و(خزانة نفوسة) بـ (قصر ولم). وكانت من اكبر المكتبات العامة بالجبل وأشهرها، حيث ضمت جنباتها إعدادا هائلة من الكتب والمصنفات.

كما زرت (مدينة ايفاطمان)، وهي أيضا يبدو إنها كانت تشغل مساحة كبيرة ومتسعة وهذا يتبين من كثرة الآثار المترامية والمتناثرة، إلا أن اغلب أثارها قد تراكمت حجارته وتساقطت كما لوحظ في مدينة شروس، وعلى عكس قرى ومدن أخرى ما زالت محافظة على أثارها[2] وبمدينة ايفاطمان تأسست أول (مدرسة)، لتحفيظ القرآن الكريم،

1 - افدني صديقي الأستاذ المؤرخ علي حامد لطيف البدراني أن قبائل البدارنة الغربية والشرقية قد سكنوا في هاتين القريتين حتى أواخر السبعينات من القرن الماضي، حيث أقامت البدارنة الشرقية بقرية زعرارة، والبدارنة الغربية سكنوا بقرية دجي. ثم قاموا بتأسيس قراهم الجديدة فيما بعد أسفل الجبل.

2 - ربما يرجع السبب في ذلك إلى هجرة سكان تلك المدن إلى أماكن أخرى، ولم تكن بها استمرارية تاريخية

وتعليم مبادئ القراءة والكتابة في جبل نفوسة، على يد (الشيخ المعلم عمرو بن يمكتن)، إلا إنني للأسف لم اعثر على مكان هذه المدرسة، لقلة الدراسات والمعلومات الأثرية عن هذه المنطقة وغيرها من مناطق الجبل. ومن القرى التي زرتها في الرحلة قرية (ويغو)، وهي أيضا قرية مهجورة السكان، وبقيت أثارها شاهدة على تاريخهم.

4 - الرحلة الرابعة: وكانت خلال أيام: (11/22-2004/12/3م) وشملت الزيارة في هذه الرحلة (مدينة كباو)، من المراكز الحضارية بالجبل والتي ساهمت بوضوح في الازدهار العلمي والثقافي بالمنطقة خلال فترة الدراسة، وتبعد كباو عن مدينة طرابلس حوالي 270 كلم، كما زرت بعض القرى-المتواجدة حول مدينة كباو - وهي كذلك لها دور تاريخي في ميدان العلم والمعرفة مثل: (وادي إكراين وعلى ضفافه بعض القرى كآت بارون، وتصرار، وإيمزبولن، وأبو راوي) بالإضافة إلى (قرية إبانين) التي تعلو قمة جبل إبانين و(قرية جلميت) في أعلى قمة جبل عالي، ولكل من هذه القرى معالمها التاريخية والأثرية التي تشتهر بها منها على سبيل المثال: (قصر كباو) الأثري الذي نال نصيبه من الترميم والصيانة مؤخرا بمجهود الأهالي، و(مسجد أبو محمد الكباوي احد مشائخ وعلماء كباو المشهورين، و(مسجد أبو هارون التملوشايتي) في إبانين، ولم اعثر في جمليت على مدرسة الشيخ أبو هارون الجلالي. كما قمت بزيارة خلال هذه الرحلة (المدينة طمزين) التي تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 250 كلم، ولاحظت أن المدينة قد مرت بعدة مراحل قبل أن تصل إلى مرحلة البناء على حافة الجبل، وهذه الملاحظة تكاد تبدو عامة على اغلب مدن وقرى الجبل، التي بدأت السكن في الغيران والكهوف، إلا أنهم ما يبدو أنهم هذبوا تلك المغارات لتصبح صالحة لإقامة وهي فترة ترجع إلى التاريخ القديم، ثم تطورت الحياة بالمنطقة وبدأ السكان يبنون المباني لغرض السكن فاستخدموا: (الطين والتراب والحجارة والجبس)، والملاحظ أنهم اختاروا البناء على حافة الجبل، ويرجع السبب في ذلك لأسباب إستراتيجية وأمنية ليكونوا متحصنين ضد غارات الأعداء. ومن المعالم التاريخية بمدينة طمزين (مسجد الشيخ أبي عثمان سعد بن يونس)، كما زرت (قرية تمصمص)، الواقعة على بعد كيلو متر جنوب مدينة طمزين، ويبدو إنها أقدم زمنيا من الأولى، كما أفادني بذلك بعض أهالي طمزين قائلين: «أن سكان تمصمص هجروا قريتهم في فترة تاريخية غير معروفة بالدقة، وقاموا بتأسيس مدينة طمزين التي كانت في منطقة بو خروبة أولا، ثم أسسوا مدينتهم على حافة الجبل حوالي عام 775هـ».[1] ومن ابرز معالم تمصمص

فتتهالك بفعل الزمن والطبيعة، بخلاف الأخرى التي تلاقي الاهتمام من قبل ساكنيها عبر الأجيال المتوالية

1 - هذه الرواية سمعتها لأكثر من شخص منهم: د.مسعود الكوشلي. أ. محمد الهوفاري وغيرهم. ومنطقة بو خروبة زرتها وهي تحتوي على عدة معالم أثرية واغلبها في شكل غيران، منها: مسجد اثري رائع تحت الأرض،

الأثرية: قصر تمصمص، الذي لم يتبقى من رسمه سوى حجارة متراكمة على بعضها البعض، و(مسجد ومدرسة الشيخ أبي محمد خصيب التمصمصي)، التي ما زالت قائمة وبحالة جيدة، وفي هذه المدرسة درست أول فتاة من الجبل إلى جانب الفتيان وهي أم ماطوس من قرية جارإصرا، كما شدت الرحال نحو (مدينة تملوشايت) الممتدة الأطراف بقراها السبع: (ماجر، والقصر، واميتار، وإمحيجل، وتوزنزرت، وتلات خرب، وابدليل)، وتبعد عن مدينة طرابلس حوالي 240 كلم، ومن معالم هذه المدينة: مسجد ومدرسة الشيخ والشاعر أبي نصر بن نوح التملوشايتي، ومسجد الشيخ عيسى بن زرعة بقرية ماجر، وقصر تملوشايت بقرية القصر، ثم توجهت ناحية قرية تندميرة التي أنجبت علماء وأعلام عديدين من أبرزهم الشيخ إلياس أبو منصور، الذي لا يزال مسجده قائما وبحالة جيدة. وفي هذه الرحلة أيضا أكملت زيارة ما تبقى من قرى مدينة الحرابة مثل: (تترغت، وجريجن، وبقالة، وتمنكرت (بقيقيلة حاليا)، ومرقس، ودركل، والجزيرة)، وتزخر هذه القرى جميعها بالعديد من المشاهد، والمعالم التاريخية والأثرية التي تمثل قيمة بالغة وتراث حضاري عريق، كالأبنية التاريخية، من منازل وبيوت، ومعاصر وقصور، ومدارس، ومساجد، كمسجد دركل الذي ربما يكون للشيخ لبي خليل الدركلي الذي وجدت به تاريخ على احد سقوفه يرجع إلى سنة (535هـ/1138م)، وهو أقدم تاريخ وجدت مدونا في الأبنية الأثرية، ومسجد ومدرسة لبي المنيب محمد بن يانيس.

5 - الرحلة الخامسة: كانت خلال أيام: (21-2005/1/23م)، وشملت هذه الرحلة القرى الواقعة في نطاق (مدينة الرحيبات)، التي تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 195 كلم، وهي: (ونزيرف، وإمساكن (قطرس حاليا)، وغبديلان، وإمرساون (الحمران حاليا)، وتيميجار (أولاد بوجديد حاليا)، وميتيون، وجيطال)، وتشتهر هذه القرى بعدة معالم تاريخية وأثرية ما زالت قائمة وبحالة جيدة منها على سبيل المثال: مسجد الشيخ أبي عبد الله محمد بن الخير الوزنزيرفي، ومسجد أبي يحيى السدراتي ، ومسجد أبي الحسن الابديلاني، ومسجد أبي حازم المرساوني، ومسجد الشيخ أبو علي بن يخلف التيميجاري، ومسجد الشيخ إسماعيل الجيطالي، وغيرها من المعالم والمشاهد من المصليات والابنية مثل القصور والمباني. كما زرت مدينة يفرن بقراها الآتية: (القلعة، وتاغمة، وتازمرايت، وأت غاسروا (القصير حاليا)، والشقارنة، وقصبة مادي، والمعانيين، والبخابخة، والقراديين، والمشوشيين، وتاقربوست)، ونلاحظ الاتساع الجغرافي لهذه المدينة التي تحوي على العديد من المعالم الأثرية والابنية التاريخية ومنها على سبيل المثال: قصر بقرية الشقارنة ويعد

معروف بمسجد تحارت، وغيرها ن الأبنية الأثرية.

من اكبر قصور الجبل ولكن تم هدمه من قبل الأتراك أثناء ثورة غومة المحمودي، وكان يحوي على ألف وثمانمائة غرفة، ويتكون من ثمانية طوابق، ومسجد ومدرسة الشيخ العلامة أبي ساكن عامر الشماخي، بقرية المعانيين،الذي للأسف الشديد قد هدم الأهالي بعض ملحقاته مثل: خلاوي الطلبة)، وكذلك أزيلت (مقبرة الطلبة الغرباء)، وذلك في إطار بناء مسجد جديد سنة 1979م، ومسجد ومدرسة قديمة بقرية البخابخة التي قام بتجديدها الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني، مسجد أمنا حواء بقصبة مادي، ومسجد تواتريوين بقرية أت غاسروا (القصير)، ومعبد لليهود في قصبة مادي، وأثار رومانية في منطقة صفيت بالقلعة.

وفي الحقيقة هناك بعض المواقع والأماكن الأثرية لم أتمكن من زيارتها والوقوف عليها، نظرا لضيق الحال والوقت، غير انه لكل تلك المدن والقرى أهمية تاريخية، حيث برز فيها عدد كبير من العلماء والفقهاء والمفكرين الذين أسهموا بدور كبير في إثراء الحركة العلمية والثقافية في جبل نفوسة، وهي في حاجة ماسة إلى الرعاية والاهتمام من حيث أعمال الصيانة والترميم ، وذلك فضلا عن ضرورة إجراء الدراسات والبحوث الأثرية والتاريخية حولها من مختلف الجوانب، إسهاما منا في الحفاظ على تاريخنا الحضاري العريق. وفي النهاية كانت خاتمة الدراسة وقد تضمنت ابرز النتائج التي تخص موضوع البحث (الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراته على بلاد السودان الغربي والأوسط) في نقاط مختصرة، وبهذا اعمل تبدأ خطواتي الأولى في درب العلم الطويل، وصدري منشرح لكل نقد بناء ونصح أمين، والله المستعان، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

محمود حسين كوردي

طرابلس - يفرن 2005م

الفصل الأول

(التمهيدي)

1. التحديد الجغرافي لمنطقة جبل نفوسة.
2. التطور الحضاري في جبل نفوسة.
3. الفتح الإسلامي لمنطقة جبل نفوسة.
4. الدور السياسي والاقتصادي لجبل نفوسة في بلاد الغرب الإسلامي

1 - الدولة الرستمية وجبل نفوسة.

2 - الأهمية الاقتصادية لجبل نفوسة.

1 - التحديد الجغرافي لمنطقة جبل نفوسة:

لا شك أن للبيئة دورا مهما ومؤشرا في فكر الإنسان وحضارته فهي تشكل أسلوب حياته وثقافته. وبما أن البيئة تخضع لعامل الجغرافيا والمناخ فان دراسة تاريخ جبل نفوسة تتطلب دراسة لموقعه الجغرافي. واثر ذلك العامل في فكر وحضارة السكان.

ويعد هذا الجبل ضمن سلسلة جبلية طويلة تمتد تضاريسها من المحيط الأطلسي غربا إلى مدينة (الخمس)[1] على البحر المتوسط شرقا. وهو بذلك يمتد من المغرب الأقصى. فيمر بالمغربين الأوسط والأدنى. وهذا ما أشار إليه البكري في حديثه عن جبال أطلس قائلا: «أنه اكبر جبال الدنيا وهو يتصل بجبل أوراس وبجبل نفوسة المجاورة لطرابلس».[2] والملاحظ أن لهذه السلسلة الجبلية تسميات محلية. في كثير من أقسامها عبر البلدان التي تمر بها وفق اعتبارات ودلالات خاصة: اجتماعية. أو قبلية. أو بيئية. ففي المغرب الأقصى يطلق عليها (جبال درن). وفي المغرب الأوسط يطلق عليها (جبل الأوراس). أما في تونس فهي تعرف (بجبل دمر) وعندما تصل إلى إقليم اطرابلس تطلق على مسافة منها (جبل نفوسة).[3]

ويحيط الجبل بمنطقة طرابلس الساحلية من جنوبها الغربي متخذا شكل هلال ويفصلها عن فزان. ولذلك تسمى الإقليم الساحلية من طرابلس بـ (الجفارة). والأقاليم الداخلية المرتفعة بـ (الجبل) والهضبة القاسية التي تنحدر بالتدرج نحو الصحراء بـ (الظهر).[4] والملاحظ أن الجبل يرتفع من الشرق إلى الغرب فيبلغ ارتفاعه في يفرن 715 متر. وفي جادو 659 متر. وفي كباو 640 متر. ونالوت 650 متر. وتبلغ مساحته الكلية حوالي أربعة آلاف كلم ويبلغ عمقه حوالي عشرين كلم.[5]

وجبل نفوسة يقع في بلاد المغرب الأدنى (بليبيا حاليا) وهو ما يعرف حاليا بـ (الجبل الغربي). ولكن السؤال المطروح ما هو التحديد الجغرافي الدقيق للجبل؟ وما أثر التطورات

1- الخمس: مدينة ليبية تقع على الساحل البحر المتوسط. وتبعد عن مدينة طرابلس حوالي 120 ك.م شرقا. ينظر الطاهر الزاوي. معجم البلدان الليبية. طرابلس: دار مكتبة النور. 1968ن ص 125.

2 - أبو عبيد البكري. المسالك والممالك. ج2 . حقيق ادريان فان ليوفن واندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب. 1992م. ص 852: الطاهر الزاوي. المرجع السابق. ص 97ظح صه باقر. عصور ما قبل التاريخ في ليبيا وعلاقتها باصول الحضارات القديمة. (ليبيا في التاريخ) المؤتمر لتاريخي. الجامعة الليبية . 1968. ص 6.

3 - محمد عبد الله التجاني. رحلة التجاني. تقديم: حسني عبد الوهاب. تونس: المطبعة الرسمية. 1958.

4 - سعد زغلول. تاريخ المغرب العربي. ج1. الإسكندرية: منشأة المعارف. 1979. ص 66.

5 - عبد الجليل الطاهر . المجتمع الليبي: دراسات اجتماعية وانتربولوجية. صيدا -بيروت: المكتبة العصرية. 1969. ص 21.

السياسية والاجتماعية والاقتصادية على هذا التحديد؟ والى أي مدى يمكن أن نطلق تسمية نفوسة على أجزاء الجبل في إقليم اطرابلس؟.

اختلفت الآراء وتباينت حول تحديد امتداد جبل نفوسة. فبينما يرى الرحالة ابن حوقل (4هـ/10م) والرحالة الإدريسي (6هـ/10م) والحميري (9هـ/15م) أن: طول الجبل يقدر بمسيرة ثلاثة أيام.[1] نجد أراء أخرى تخالف ذلك مثل: شمس الدين الأنصاري (4هـ/10م)، والمؤرخ البكري (5هـ/11م) وأبو الحسن المغربي (6هـ/12م)، والحموي (6هـ/12م) يرون: أن طول الجبل ستة أيام.[2]

وبذلك يتبين أن هناك فرق شاسع بين الرأيين بمقدار مسيرة ثلاثة أيام وهي مسافة تؤثر في مسألة التحديد الجغرافي لموضوع البحث. وإذا ما تمت مقارنة المقاييس القديمة (المسير بالأيام) بالمقاييس الحديثة (بالكيلومترات) على جغرافية الجبل، يمكن أن نستنتج طول الجبل بصورة تقريبية وفق الآراء السابقة. الرأي الأول: حدود الجبل من نالوت غربا إلى تغرمين (الزنتان حاليا) شرقا. وان أصحاب الرأي الثاني يرون طول الجبل: من نالوت غربا إلى يفرن شرقا.

وتذهب بعض الدراسات المعاصرة إلى القول بان جبل نفوسة يمتد من الحدود التونسية غربا حتى مدينة الخمس شرقا في هضاب النقازة حيث يلتقي مع البحر المتوسط.[3] وهذه المسافة تبلغ حوالي الخمسمائة كيلو متر والمعروفة بجبال طرابلس.[4] كما يلاحظ أن هناك أراء أخرى[5] تقصر المسافة بمائتي كيلو متر تقريبا أي من الحدود التونسية وتحديدا من مدينة وازن بالقرب من نالوت غربا إلى مدينة يفرن[6] شرقا.

1 - أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، ج1، بيروت: دار مكتبة الحياة ، 1979، ص 92؛ أبو عبد الله الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، مج1، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1994، ص 279؛ محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، 1975، ص 578.

2 - أبو عبيد البكري، المصدر السابق، ص 655-656؛ شهاب الدين الحموي، معجم البلدان، ج5، بيروت دار إحياء التراث لعربي، 1979، ص 296-297؛ شمس الدين أبي عبد الله الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ج2، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، (د.ت)، ص 239؛ أبو الحسن علي بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، حققه: إسماعيل العربي، بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1970، ص 145-146.

3 - الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ط2، ليبيا: دار التراث العربي، 1963، ص 55؛ عبد اللطيف محمود البرعوثي، التاريخ الليبي القديم، بيروت: دار صادر، 1971، ص 10.

4 - عبد العزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا، الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، 1962، ص 107.

5 - إبراهيم سليمان الشماخي، قصور وطرق جبل نفوسة، طبعة حجرية، 1892، C.F. Despois. J.M Le Djebel Nefousa. Larore. Editcurs. 1935.

6 - يفرن: وهي إحدى مدن الجبل في الناحية الشرقية منه، وتبعد عن مدينة طرابلس حوالي 120 كلم ومن قراها القديمة: المعانيين، والبخابخة، والقصر، والقراديين، والشقارنة، والقصبة وتاقربوست، والمشوشيين، وتاغمة

كما تنبغي الإشارة إلى أراء تفيد أن حدود الجبل محصورة ما بين نالوت وتغرمين وهي (ارض الزنتان حاليا).[1] وهي تعد اقصر مسافة للجبل بين جميع الآراء المطروحة سالفا. أما من حيث العرض فانه يقدر بحوالي(20-25 كم) ويندمج في جنوبه مع الهضبة الصحراوية التي تعرف بمنطقة الظاهر.[2]

وبذلك يمكن استنتاج التحديد الجغرافي لجبل نفوسة في تلك العصور الوسيطة - ولا نعتبره تحديدا ثابتا- وإنما هو تحديد جغرافي متحرك حسب الظروف السياسية والاجتماعية من نزعات وهجرات وسنن بشرية. وهذا الأمر تكرر من قبل والدليل على ذلك أن لفظ ليبيا الذي أطلقه الجغرافيون والمؤرخون على أماكن جغرافية مختلفة فلوحظ امتدادها حينا وتقلصها حينا فمثلا كان يعني بها هيردوت: منطقة برقة. واستعملها مرة أخرى على الشمال الإفريقي، وقصد بها أيضا أفريقيا بكاملها.[3] وهذا ما تكرر أيضا مع المؤرخ استرابون عندما رأى أن المعمورة مقسمة إلى ثلاث أقسام وهي: آسيا، وأوروبا، وليبيا.[4] وهنا يلاحظ أن تسمية ليبيا تطلق على كامل القارة. ولا يختلف الأمر كثيرا عن تسمية جبل نفوسة المنتسب لأشهر القبائل التي استمر تواجدها التاريخي في الجبل جيلا بعد آخر.[5] وكان الجبل ينقسم إلى ثلاث مناطق: الناحية الغربية ويطلق عليها (إميناج)[6] ومركزها مدينة لالوت، والمنطقة الوسطى مركزها جادو، والثالثة المنطقة الشرقية ومركزها يفرن. والمعروف أن الجبل تسكنه عدة قبائل منها: هوارة، وزناتة، ولواتة، سدراتة، مغراوة ونفوسة. وكانت الأخيرة مستوطنة في الناحية الغربية إلى جانب قبائل أخرى من أصل هواري أو زناتي، أو سدراتي. أما الأجزاء الشرقية من الجبل فكانت تسكنه عدة عشائر من زناتة وهوارة مثل: بني يفرن ويني زمور ومسكورة وماطوسة.

وتازمرايت، والقلعة. وتشتهر بغراسة الزيتون والتين والكروم والحمضيات واللوز. بالإضافة إلى زراعة القمح والشعير، ويوجد بها العديد من الأبنية والمعالم الأثرية، التي تحتاج إلى ترميم وصيانة، ودراسات أثرية. منها: مدرسة ومسجد الشيخ عامر الشماخي توفي عام 792هـ/1390م. ومدرسة البخابخة قام بتجديدها الشيخ عبد الله الباروني والد المجاهد سليمان الباروني. زارها الباحث عام 2004ف.

1 - صالح معيوف مفتاح، جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية من منتصف ق2هـ/إلى أواخر ق 3هـ رسالة دكتوراه غير منشورة، الرباط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (2002-2003ف).

2 - عبد الحفيظ الميار، الحضارة الفينيقية في ليبيا، طرابلس: مركز الجهاد للدراسات التاريخية 2001، ص 26.

3 - محمد مصطفى بازامة، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، ط2، بنغازي: مكتبة قورينا للنشر والتوزيع 1975، ص 88؛ عبد اللطيف محمود البرغوتي، المصدر السباق، ص 22.

4 - إسترابون، الكتاب السابع عشر من جغرافية إسترابون، ترجمة: محمد المبروك الذويب، بنغازي: جامعة قاريونس، 2003، ص 92.

5 - Oric Bates. The Eastern Libyans. Frank Cass CO. P 71.

6 - كلمة أمازيغية وتعني: العلوي أو الأعلى، وسياقها هنا الجهة العليا.

ومع بداية العصر الوسيط استطاعت قبيلة نفوسة أن تمد سيطرتها على القبائل والعشائر المجاورة لها في الجبل (هوارة، ولواتة، وزناتة، سدراتة، مغراوة) وانصهرت داخلها تدريجيا حتى امتدت تسميتها في مرحلة أولي إلى مدينة جادو، ولم يبق خارج إطار سيطرة نفوسة إلا قبيلة بني يفرن الزناتية التي عرف وطن يفرن باسمها والذي خضع للنفوذ النفوسي في مراحل تالية بعد التغلب على حركة خلف ابن السمح.[1] وعلى ما يبدو فان هذا الامتداد والتقلص لنفوذ نفوسة على أراضي الجبل هو الذي أنتج اختلاف الآراء في تحديدات الجغرافيين العرب حول طول الجبل.

أن وهذه الجغرافية لجبل نفوسة من نالوت (وازن= بالقرب من نالوت) غرابا إلى يفرن شرقا هي المنطقة التي أرجحها في تحديد موضوع البحث جغرافيا، فقد لاحظت من خلال بعض المصادر التاريخية أن هذه المنطقة كانت تشكل الإطار لحركة الطلاب والعلماء وتنقلاتهم العلمية.

وبتكون الجبل في اغلبه من صخور جيرية تعود إلى العصر الجوراسي وتتجه هذه السلسلة مكن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتتخللها مجموعة من الأودية بها مجموعة من الدروب والمسالك تربط مدن وقرى الجبل بعضها ببعض[2] وتتساقط الأمطار بكميات تتراوح ما بين (300-400 مم) سنويا على منطقة الجبل، وهي تقل للمتجه من الشرق إلى الغرب وبالنسبة لمناخ الجبل فهو شبيه بمناخ البحر المتوسط معتدل في فصل الشتاء وحار جاف في فصل الصيف[3] وهذا ما يهيئ ظروفا طبيعية مناسبة تسمح بتجمعات سكانية، وخلق حضارة بشرية وفق البيئة الجغرافية.

1 - محمد حسن، حول إحدى القبائل البربرية: نفوسة (مجالها الجغرافي وعلاقتها بالسلطة المركزية)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط : العدد 10، 1984، ص 151.

2 - للمزيد انظر» القصور والطرق لمن يريد جبل نفوسة من طرابلس، إبراهيم سليمان الشماخي، ترجمة: احمد الفساطوي،طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005.

3 - محمد المبروك المهد، جغرافية ليبيا البشرية، بنغازي: المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع (د.ت)، ص 75.

2 -التطور الحضاري في جبل نفوسة:

(أ). التوزيع الجغرافي لقرى ومدن الجبل:

كان جبل نفوسة مستوطنا ومأهولا بالسكان منذ القدم، فهو يمثل حضارة مستقرة،[1] وتأسيسا على ذلك قامت فيه عدة مدن وقرى، منها ما اندثر وعفا عليها الزمن، واستمر بعضها الآخر خلال العصور الوسطى، وما تزال بقية منها حتى يومنا هذا في أثارها وأطلالها، وأسهمت اغلبها في التطور الحضاري والثقافي والبشري للمنطقة حسب موقعها وطبيعتها. وهي موزعة على طول جغرافية الجبل من الغرب إلى الشرق[2] على النحو الآتي:

بداية من ناحية الغرب مدينة لالوت (نالوت حاليا)، الواقعة في أقصى الغرب،[3] وهي مركز الجهة الغربية، تقع على جبل عال، وتطل على وادي لالوت الفسيح، وغابة تالة المشهورة بعين تغليست،[4] والى الجنوب الغربي من لالوت توجد قرية تيغيت (أولاد محمود حاليا)، والى الشرق توجد مدينة كباو وتطل على وادي إكراين، وشاهدت بوسط ذلك الوادي الكبير آثار لأبنية مطمورة تحت الأرض تدل على وجود قرية قديمة، ومن قرى الوادي العديدة: قرية إيباناين التي تقع فوق قمة جبل إيباناين، وتقابلها إلى الجنوب منها قرية جليمت والي الغرب منها قرية آت بارون في وسط الوادي وفي وسط الوادي في ناحية الشمال تقع بلدة تصرار، وتجاورها إيمزبولن وقرية ابوراوي شمالا. وفي غرب الأخيرة قرية عبد الغني وتعلو قمة جبل عال والي الغرب الجنوبي وادي الشيخ وتقع فيه مجموعة قرى منها: كمزين، ووريوري[5].

وفي الشمال الشرقي لمدينة كباو توجد قرية فرسطا[6] وتقع على قمة جبل وتطل على وادي فرسطا الذي يفصلها عن مدينة طمزين،[7] المقابلة لها من الشرق والي الجنوب

1 - عبد الجليل الطاهر، المرجع السابق، ص 11.

2 - انظر الخريطة رقم: (1)، تبين توزيع القرى والمدن على طول الجبل من الغرب إلى الشرق.

3 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 300 كلم، وزرت هذه المنطقة خلال أيام: (10-2004/2/15م) وأخذت معلومات شفوية من الإخوة: الأستاذ سليمان عمرو يحمد، والشيخ الأستاذ يحيى المقدمي. وذلك بخصوص معلومات عن المدينة وسكانها، وموقعها، واهم معالمها التاريخية والأثرية.

4 - زرتها عام 2004م، ومازالت مياهها جارية.

5 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 270 كلم، زرت هذه القرى والمدن خلال أيام: (22-3/11-2004/12م)، وأخذت عنها معلومات شفوية من الإخوة: الأستاذ إبراهيم صكوح، الحاج سعيد طرف.

6 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 270 كلم، زرت هذه المنطقة في: (2004/02/16م)، وأخذت عنها معلومات شفوية من الإخوة: الأستاذ علي منصور، الأستاذ عبد الله أبو رقيبة، والأستاذ خليفة العزابي.

7 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 250 كلم، زرت هذه المنطقة خلال أيام: (24-2004/11/25م)، وأخذت عنها معلومات شفوية من الاخ: الأستاذ محمد الهوفاري.

من طمزين تقع قرية تمصمص القديمة والتي يعتقد الأهالي أن أهلها هجروها وكونوا طمزين على حافة الجبل. وتطل طمزين على وادي طمزين من الناحية الشرقية وهو يفصلها عن مدينتي: تملوشايت وتندميرة. وتملوشايت يبدو من خلال أثارها إنها كانت مدينة متسعة الأرجاء. وتنقسم إلى عدة قرى منها. ماجر. وقرية أبد ليل. وقرية اميتار. وقرية امحيجل. وقرية توزنزرت. وتلات خرب. وقرية القصر عرفت بهذا الاسم لوجود قصر تملوشايت بها.[1] وتطل على وادي يعد أضيق من الوديان السابق ذكرها. كما أن مدينة تندميرة تقع على حافة الجبل وتطل على وأدب تندميرة الذي يتجه جنوبا ويلتقي مع وادي شروس الكبير.[2] والي الشرق منها وادي شروس الكبير. حيث تقع إلي شرقه مدينة شروس.[3] عاصمة الجبل في العصور الوسطى. وحول شروس تتناثر مجموعة قرى ومدن أخرى مثل: ويغو. ومرقس وتترغت. وجريجن. وتمنكرت. وبغطورة. وبقالة. ودركل. والجزيرة.[4] والي شمال تلك القرى والمدن توجد قريتان: الأولى زعرارة وهي تتخذ من كهوف الجبال بيوتا وتقع في أعلى قمة جبل وفي طرفها الشمال الغربي القرية الثانية وهي دجي وبيوتها منحوتة بشكل غريب في الجبال.[5]

والي الشرق منها يفصلها واد عميق عن منطقة الرحيبات وهي تشمل عدة قرى ومدن قديمة منها: إيفاطمان الواقعة على جانبي روافد وادي تالة ويقابلها على الجانب الآخر من نفس الوادي ثلاث قرى: الشياب وابديلان. وإمساكن وفي اتجاه الشرق والشمال الشرقي بعد اجتياز وادي أبو غنداس تكون قرية ونزيرف المطلة على وادي أو جنت. ويفصلها وادي أمسين عن القرى: إدوناط. وتيميجار وميتيون. وكذلك من المدن والقرى القديمة ضمن هذه المنطقة: إينر وجيطال وإمرساون.[6] والي الشرق من هذه المجموعة تأتي قرى مدينة جادو. وهذه المدينة أيضا كانت من المدن الكبيرة في الجبل بل كانت تمثل أحيانا العاصمة في

1 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 240 كلم. زرت هذه القرى خلال (25-2004/11/26م) وأخذت عنها معلومات من الإخوة: الأستاذ محمد الهوفاري. والأستاذ عمر المرعوش.

2 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 240 كلم. زرت هذه المدينة بتاريخ (27-11-2004م). وأخذت عنها معلومات شفوية من الأستاذ: محمد صالح التندميرتي.

3 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 240 كلم. زرت هذه المدينة يوم الجمعة بتاريخ (2004/4/23م).

4 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 240 كلم. زرت هذه المدن والقرى خلال أيام: (28-2/11-2004/12م). وأخذت عنها معلومات شفوية من الإخوة: الأستاذ موسى شاكير. والأستاذ عمر أيوب. والأستاذ احمد الساق. والأستاذ عمر عبارة.

5 - تبعدان عن مدينة طرابلس حوالي 200 كلم. زرت هاتين القريتين خلال أيام: (22-2004/4/24م). وأخذت عنهما معلومات شفوية من الإخوة: الأستاذ على حامد إلطيف البدراني. واحتيوش.

6 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 187 كلم. زرت هذه المدن والقرى خلال أيام: (21-2005/1/23م). وأخذت عنها معلومات شفوية من الاخ: الأستاذ صلاح مسعود الدبلي.

العصور الوسطى. وتعد هذه المنطقة الوسطى من الجبل ومن قرى جادو: ثلاث قرى تعلو قمة جبل وهي: يوجلين. وتلات أو نميران. وأوشباري وتطل هذه القرى على وادي وعين تموجط وقرية تموجط التي تجاورها عند سفح الجبل قرية أيجناون التي يحدها جبل من الناحية الشمالية تعلوه ثلاث قرى أخرى وهي: مزغورة. وتندباس وجماري.[1] المجاورات لقريتا: ويفات. ورقرق. وإلي الشرق من مدينة جادو تتناثر مجموعة قرى هي اليوم ضمن منطقة الرجبان ومنها: تيركت (أولاد عطية). والغلت (أولاد عنان). وتاردية (أولاد عبيد). وإشارن (أولاد جابر) وسنتوت. واشفي. وميري وهي القرية التي أقام بها الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن سبع سنوات خلال زيارته للجبل. وفي الاتجاه الشرقي من هذه المجموعة تقع بلدة تاغرمين وهي حاليا ضمن مدينة الزنتان.

وفي أقصى شرق جبل نفوسة تقع مدينة يفرن.[2] وهي تأتي في القسم الثالث والأخير من جغرافية الجبل (موضوع الدراسة). واكتسبت اسمها من بني يفرن فرع من قبيلة زناتة البترية كانوا قد استوطنوا المنطقة. قبل الامتداد النفوسي عليها. وحاولت هذه المنطقة أن تستقبل في فترة من فترات تاريخها عن الدولة الرستمية في ثورة خلف بن السمح.[3] وتتكون مدينة يفرن من عدة قرى وهي: المعانيين. والبخابخة. والمشوشيين. والقراديين. وقصبة مادي. وآت غاسروا (القصير حاليا). وديسير (الشقارنة حاليا). وتاقربوست. وتازمرايت. وتاغمة. والقلعة.[4]

(ب). بداية الاستقرار وأنواع السكن في جبل نفوسة:

تعد المنطقة ما بين ساحل البحر والواحات الصحراوية هي المنطقة التي يمكن للإنسان أن يعثر فيها على المياه خلال العصور القديمة[5] وبالتالي يمكن لإنسان تلك

1 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 180 كلم. زرت هذه المدن والقرى خلال أيام: (1-2004/4/7م). وأخذت عنها معلومات شفوية من الإخوة: الأستاذ داود القلال. والأستاذ يحيى القلال. والأستاذ على قليزة. والأستاذ عادل يخلف الطرميسي.

2 - تبعد عن مدينة طرابلس حوالي 120 كلم. زرت هذه المدينة وقراها خلال أيام: (15-2004/6/20م).

3 - ثورة خلف بن السمح: قامت في الجهة الشرقية من الجبل وسياتي الكلام عليها في صفحة: (51).

4 - في الحقيقة هناك بعض القرى والمدن التاريخية والتي وللأسف الشديد لم يسعفني الوقت من زيارتها والوقوف على معالمها ومشاهدة أطلالها. ورأيت من الأنسب أن اذكرها هنا. وذلك لأهميتها التاريخية والأثرية. وأرجو من الله العلي القدير أن يوفقني بزيارتها في وقت لاحق. ومنها: قرية وازن في أقصى الغرب على الحدود الليبية التونسية. والى الشرق منها قرية تيعيت (أولاد محمود حاليا). والى الشرق مجموعة قرى تقع حاليا في نطاق مدينة الرجبان وهي: تاردية. واصغو. واشفي. وسنتوت. وتيميتي. وتيركت. وميري. وهي القرية التي أقام بها الإمام الرستمي عبد الوهاب سبع سنوات عند إقامته بالجبل. وقرية تيغرمين وهي حاليا مكان استقرار قبائل الزنتان. والقرى القديمة الواقعة اليوم في نطاق مدينة الرياينة. وكذلك القرى الواقعة إلى الشرق من مدينة يفرن وهي: ككلة ربابل وتاكبال.

5 - خلال العصرين الحجريين القديم والحديث.

المناطق أن يفكر في الاستقرار، والاشتغال بالزراعة. وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن الليبيين القدماء كانوا يعيشون في شكل قبلي يسوده الاستقرار، وقد عرفوا حياة الرعي والزراعة قبل مجيء الفينيقيين إلى هذه المنطقة كما زاولوا النشاط التجاري.[1] ويرى هيرودوت ق: (5 ق.م) أن الليبيين اسبق في هذه المنطقة من الفينيقيين ويتحدث عن اللوتوفاجيين، والجندانيين، والجارامنت في فزان، ويشير إلى الجيتول سكان الجبل متحدثا عن أرضهم وما تحويه من سهول وجبال وبحيرات، وان السكان حياتهم بسيطة، ولهم زوجات متعددة وأطفال كثيرون، ويهتمون بتربية الخيول والثيران والخراف. والسياق يطرح السؤال التالي : هل بقي الجيتول في الجبل واستمرت سلالتهم في نفس المكان، أم هاجروا إلى منطقة أخرى، أو أنهم اختلطوا بأقوام أخرى؟. ومن المحتمل أن تسميتهم قد تحورت إلى مسمى آخر. كما أشار استرابون (عاش ما بين 66 ق.م - 24م) إلى أن سكان سهل الجفارة في القرن الميلادي الأول هم الليبيون والفينيقيون.[2]

ومن المتفق عليه بين اغلب المصادر التاريخية القديمة أن منطقة جبل نفوسة كانت مأهولة بالسكان منذ القدم، وكانوا معرضين لغارات وغزوات قادمة من البحر.[3] كما تؤكد مصادر أخرى على وجود آثار قديمة بمدينة شروس.[4] وهذا ما يفيد أن منطقة الجبل مستبحرة في العمران منذ القدم.

ومن الملاحظ أن تلك المدن والقرى مرت بعدة مراحل في نوعية السكن واختيار المكان للبناء،[5] ففي المراحل الأولى على ما يبدو أن سكان الجبل اتخذوا من الكهوف والمغارات الطبيعية مساكن لهم بعد أن قاموا بتهذيبها وتسويتها وفق تقنيات تتماشى وتلك العصور، كما ينبغي الإشارة إلى أن الكهف أو الغار كان يوفر الأمان، بالإضافة إلى ميزاته وخصائصه فهو بارد صيفا، دافئ شتاء. وبفعل التطور الحضاري عبر الزمن للمنطقة، ولأسباب أخرى توصل السكان إلى معرفة بناء البيوت بالحجارة والطين والجبس، وهي مواد طبيعية ومحلية متوفرة في ذات المكان، وبذلك انتقلت اغلب مدن وقرى الجبل إلى حواف

1 - رشيد الناضوري، المغرب بيروت: دار النهضة العربية، 1981، ص 154.

2 - استرابون، المصدر السابق، ص 113.

3 - عبد الجليل الطاهر، المرجع السابق، ص 15، تاديوش ليفيتسكي، تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم (دراسة لسنية في الانوميا والطوبونوميا الأمازيغية)، ترجمة : عبد الله رارو، الولايات المتحدة الأمريكية: مؤسسة توالت الثقافية، ص 58.

4 - الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص 144.

5 - من خلال زياراتي المتكررة للجبل لاحظت: أن اغلب مدن وقرى الجبل المبنية على حافة الجبل تجاورها قرية أو مدينة أخرى مساكنها وبيوتها ومساجدها عبارة عن غيران تحت الأرض كما لوحظ أن اغلبها قد مر بثلاث مراحل سابقة من البناء، والمرحلة الرابعة هي المساكن الحديثة والمعاصرة لنا، وان منطقة الجبل تحتاج إلى دراسات أثرية مكثفة ومنظمة ليتمكن الباحث في التاريخ الاستفادة من المادة الأثرية.

الجبال متخذة منها تحصينات طبيعية تمكنها من الحماية وسهولة الدفاع، وهذا ما يعوضها عن بناء الأسوار كما هو معروف في المدن الساحلية، وهنا يتضح العامل البيئي والجغرافي في فكر سكان الجبل، وتطور حياتهم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية التي مرت بها عبر العصور التاريخية.

(ج) أساليب وأنماط الحياة في جبل نفوسة:

بعدما استقر أهالي الجبل بتلك المدن والقرى والادشار بدأ تفاعلهم مع البيئة الطبيعية والجغرافية، التي تجمع ما بين ثلاثة أشكال جغرافية وهي: (الجبل، والجفارة، والظاهر)، حيث منحتهم أنماطا وأساليب للعيش تميزوا بها، فكانت حضارتهم تجمعهم بين الاستقرار في الجبل لمعرفتهم الغراسة مثل: أشجار الزيتون، والنخيل، والتين، والكروم، والحمضيات، واللوز، وزراعة الخضروات، والفواكه في (الجبل والظاهر)، والترحال المؤقت في مواسم معينة في منطقة (الجفارة)،[1] التي تنبسط إمام انحدرت الجبل من الناحية الشمالية، وتشكل امتداد طبيعيا وإقليميا يعتمد عليه السكان في حياتهم الاقتصادية حيث يتخذونها في بعض فصول أسنة مراعي لماشيتهم، وفي بعضها الآخر للزراعة مثل زراعة الحبوب أهمها (القمح والشعير). أما منطقة جنوب الجبل والمعرفة: (بالمظاهر) وهي الأخرى تعد منطقة مهمة اقتصاديا في ارعي والزراعة وغيرها. ومن خلال الزيارات المتكررة للمنطقة كشفت عن وجود اختلافات بين المناطق الشرقية والغربية من جبل نفوسة، ففي الشرق تسقط الأمطار بكميات أكثر منها في الغرب، كما أن أراضي الأولي رسوبية حمراء صالحة للزراعة أكثر[2] ولهذا فان التركز السكاني في المنطقة الأولي أكثر منه في الأخيرة.[3]

ونتيجة لتساقط كميات الأمطار على الجزء الشرقي من الجبل بصورة أغزر منها في الجهة الغربية فقد أقيمت في المنطقة الأولي مزارع انتشرت فيها أشجار الزيتون والتين والكروم واللوز والحمضيات، في حين بقيت منطقة الظاهرة في غرب الجبل منطقة رعوية

1 - عبد الجليل الطاهر، المرجع السابق، ص 13.

2 - وهذه الملاحظة ما زالت واضحة إلى اليوم حيث أن معدل سقوط الأمطار في المنطقة الشرقية يقدر ب100 مل بينما يقدر في المنطقة الغربية ب 50 مل، كما نلاحظ أن المنطقة الظاهر في الشرق حاليا اغلبها مزارع وبساتين مشجرة بمختلف أنواع الأشجار من: زيتون وتين وكروم ولوز وحمضيات وفواكه ونخيل وغيرها، وهذا غير موجود بمنطقة الظاهر في الغرب التي تكاد تنحصر في الرعي فقط.

3 - وبالفعل فتباين عدد سكان المنطقة الشرقية عن المنطقة الغربية، تحدثت عنه المصادر التاريخية، مثل البغطوري، والشماخي، والوارجلاني، وخاصة في حديثهم عن ثورة خلف بن السمح التي قامت في المنطقة الشرقية وتحديدا بمدينة يفرن وكان أتباعه يفوق أتباع خصومه الغربيين.

بسبب قلة أمطارها. كما توجد منطقة بالجبل داخلية تعرف (بالرملة)[1] وهي الواقعة على رؤوس الجبال ويحدها من جانبيها الوديان. وعادة ما تشتهر بغراسة الزيتون لتضاريسها المناسب لجريان مياه الأمطار. وهذه الموارد الاقتصادية هي التي ستقوم عليها تجارة الجبل سواء مع المناطق المحلية والقريبة كمدينة طرابلس أو التجارة الخارجية والبعيدة مثل المشرق الإسلامي أو بلاد السودان الغربي والأوسط -وهذا ما ستناوله الفصل الرابع من هذه الدراسة-.

كما تتخلل الجبال عدة وديان وشعاب وتمر بسهل الجفارة متجهة ناحية البحر الأبيض المتوسط.[2] وتنتشر في اغلب الوديان عيون المياه الطبيعية التي يعتمد عليها الأهالي في الشرب والزراعة ومن أشهرها: عين تغليست بنالوت. وعين إيندل بشروس. وعين إينظز بطمزين. وعين أمسين. وعين نانا تالة (أم القرب). وعين إجلازن بالرحيبات. وعين وليوجمي بالقرب من قرية اموساكن. (قطرس حاليا) والعين الزرقاء وعين تموجط بجادو. وعين الرومية. وعين تامديت بيفرن. وكانت هذه العيون عاملا أساسيا في استقرار الناس حولها فأسسوا القرى والمدن عليها واشتغلوا بالزراعة على مجاري مياهها. كما قاموا بحفر الصهاريج لتخزين مياه الأمطار. والاستفادة منها في الشرب ولسقي مواشيهم وحيواناتهم. كما اشتهرت وديان جبال نفوسة بغراسة النخيل وغيرها من الأشجار سوف نتطرق إليها عند الحديث عن الأهمية الاقتصادية للجبل. ونفهم من خلال ذلك الاستقرار لسكان الجبل أنهم تركوا تاريخ وأثار تدل على عمق حضارتهم.

(د). آثار وتاريخ جبل نفوسة القديم

والدارس لتاريخ جبل نفوسة في العصر الوسيط يلاحظ انه لا غنى له عن الرجوع إلى الفترة السابقة لمجيء الإسلام للمنطقة لمحاولة الإلمام بطبيعة التطور الحضاري في جبل نفوسة. ومحاولتي هذه لا تتجاوز إبراز ملامح ذلك التطور نظرا لمحدودية المعلومات المضمنة في المصادر القديمة. ولهذا كله سيتم تركيزي بالأساس على ابرز ما توصلت إليه المكتشفات الأثرية في هذا المجال سيما تلك الأعمال التي قام بها عدد من الباحثين الغربيين بإجراء البحوث الأثرية التي أكدت وجود حضارة في منطقة الجبل بلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار. فالرحالة الألماني بارت أول من عثر على النقوش الصخرية ثم توالت الاكتشافات من رسومات ونقوش وشملت منطقة واسعة م هضبة تاسيلي

1 - كما يطلق عليها الأهالي في الجبل تسمية أخرى وهي: الذراع.

2 - باربرا باريش. الجيولوجيا الأثرية للجبل الغربي. ترجمة: مصطفى الترجمان. مجلة عربيا القديمة. العدد الأول مصلحة الآثار. روما: مطابع «ليرما» دي برتيشنايدر. 1995. ص 10.

جنوبا حتى جبل نفوسة شمالا.[1] بعضها ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ وبعضها الآخر للعصر التاريخي.[2]

أما الرسومات والنقوش فهي عبارة عن حيوانات متوحشة وحيوانات برية كان الصيادون يقومون بصيدها. ورسوم لرعاة يقودون قطعان الأبقار. ونقوش تمثل عربات وجيادا. ورجالا يركبون الجمال.[3] وفسرت تلك الرسومات لأسباب وشعائر دينية وطقوس سحرية.[4]

ومن الآثار الدالة على ازدهار عمران جبل نفوسة وجود معاصر الزيتون المنتشرة في ربوع الجبل وهي تعود إلى فترات تاريخية قديمة. والملاحظ أن هذه المعاصر توجد داخل الكهوف وهذا النوع قديم جدا. وقد تبنى الرومان تلك الطريقة المحلية في عصر الزيتون.[5] وكثرة المعاصر يفيد اهتمام الأهالي بغراسة أشجار الزيتون التي تتناسب ومناخ المنطقة وزمن ثم اعتمدوا على زيتها بصفته غذاء رئيسيا بالإضافة إلى اعتباره سلعة تجارية يمكن الاتجار بها مع المناطق الأخرى. ومما يؤكد أن المنطقة كانت غنية بزيت الزيتون ما تشير إليه النقوش الصخرية خلال القرن الرابع الميلادي من: «شكر الإله على النعم والخيرات لوفرة زيت الزيتون»[6] كما اهتم أهل جبل نفوسة بتربية الإبل وتاجروا فيها هي الأخرى.[7]

أما فترة حكم الوندال الذين سيطروا على أجزاء من الشمال الإفريقي فتندر المعلومات حول تواجدهم غيب الجبل. وإنما اغلب الروايات تتحدث عن الثورات المحلية ضد الوندال الذين اتبعوا أساليب قاسية في نزع ثروة الأهالي فتزعمت طرابلس تلك الثورات.

1 - فابريتشيو موي. تادرارت اكاكوس. ترجمة: عمر الباروني وفؤاد الكعبازي. مراجعة: عبد الرحمن عجيلي طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1988. ص 13.

2 - من خلال الزيارات المتكررة للجبل لاحظت وبشكل متكرر. وجود أثار لمباني مطمورة تحت الأرض وهي في حاجة ماسة ليد الأثري ليرفع عنها كاهل الزمن. وليظهرها مرة أخرى إلى النور. وتكون في متناول المؤرخ ليحاول إعادة حياة ماض قد غبر.

3 محمد سليمان أيوب. جريمة من تاريخ الحضارة الليبية. طرابلس: دار المصراتي للطباعة والنشر.1969. ص 67-68. جمعه العناق. «ما قبل التاريخ في شمال أفريقيا». مجلة أثار العرب. (طرابلس-مصلحة الآثار). العدد الأول. (1990). ص 44.

4 - عياد موسى العوامي. «تأملات في فن الرسن على الصخور» . مجلة أثار العرب. طرابلس- مصلحة الآثار). العدد الثاني. (1991). ص 13.

5 - عبد الجليل الطاهر. المرجع السابق. ص 67.

6 - ر.ج. جودتشايلد. دراسات ليبية. ترجمة: عبد الحفيظ الميار واحمد اليازوري. طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. 1999. ص 33.

7 - محمد سليمان أيوب. المرجع السابق. ص 205.

ولما كانت منطقة الجبل قريبة جغرافيا من طرابلس فهي تتأثر بها حتما ولا شك أن سكانها شاركوا في هذه الثورات.[1] خاصة في الثورة التي قام بها كباوون (Cabaoon)، احد الزعماء الليبيين المقيمين بضواحي طرابلس، الذي جمع المحاربين حوله وتمكن من إلحاق الهزيمة بالوندال على احد سفوح الجبل.[2]

(و). الديانات السابقة للإسلام في جبل نفوسة:

أما الديانة في جبل نفوسة قبل الإسلام فتشير بعض المصادر إلى أن الديانة الليبية عرفت تقديس نظاهر الطبيعة.[3] وهذه المسألة اشتركت فيها اغلب الشعوب القديمة والمعروفة بعبادة الأوثان أي: الوثنية، حيث يشعر الإنسان القديم أن العالم ملئ بالقوى الروحانية، وان الأشجار والعواصف والسحب تسكنها أرواح.[4] ومن هنا نجد تفسيرا لبعض الصخور التي كانت مقدسة في الجبل، التي يذكرها الشماخي منها على سبيل المثال: صخرة توكيت، وصخرة تينا ولوتين، وصخرة بقالة، وصخرة الوادي، وصخرة تسيليتن.[5] كما حاول الرومان أبان احتلالهم للمنطقة فرض ديانتهم على الليبيين بعبادة آلهتهم مثل: أوزير وإيزيس بالإضافة إلى عبادة الإمبراطور الروماني إلا أنهم رفضوا ذلك، وظلوا محتفظين بعبادة الآلهة المحلية (تانيت) والإله القرطاجي (بعل حمون).[6]

وانتشرت الديانتان اليهودية والمسيحية في منطقة الشمال الإفريقي، ومنها بطبيعة الحال جبل نفوسة، فعندما فتح عمرو ابن العاص الجبل وجد سكانه على دين النصرانية.[7] كما تتحدث بعض المصادر عن وجود عدد من الكنائس وانتشارها بالجبل وقام الباحث بحصرها في تسمية مشاهد الجبل فوجدها سبعة كنائس نذكر بعضا منها على سبيل المثال: كنيسة فرسطا، وكنيسة الجزيرة، وكنيسة أغرمينان، وكنيسة تمزدا، وكنيسة توكيت، وكنيسة نسيم، وكنيسة أبديلان،[8] وكنيسة بونزيرف.[9] كما أن

1 - الإتوري روسي، المرجع السابق، ص 42.
2 - المرجع نفسه، ص 43.
3 - البرغوثي، المرجع السابق، ص 203.
4 - بازامة، المرجع السابق، ص 260.
5 - أبو العباس احمد الشماخي، السير طبعة حجرية، ص 599.
6 - الناضوري ، المرجع السابق، ص 342-343.
7 - عبد عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س كولا وبرفسال، ط3، ليبيا-تونس: الدار العربية للكتابة، 1983، ج1، ص 8.
8 - زرت هذه الكنيسة في إحدى رحلاتي العلمية للجبل وصحتي في تلك الرحلة الأستاذ الفاضل صلاح مسعود الدبلي عام 2005م، كانت الكنيسة شبه منهارة تماما سوى جدارين مازلا مقابلين بعضهما في ارتفاع حوالي 4 أمتار.
9 - الشماخي، المصدر السابق، 599-600.

عددا منهم اعتنق الديانة اليهودية، ويشير ابن خلدون إلى ذلك قائلا: «وكان منهم من تهود ومن تنصر وآخرون مجوسا يعبدون الشمس والقمر والأصنام»،[1] ويتضح من ذلك وجود الديانات الوثنية في الجبل إلى جانب اليهودية والمسيحية. وبقي هكذا الحال إلى وصول الإسلام إلى جبل نفوسة. وفي الحقيقة تزامنت تلك الديانات السماوية (اليهودية والمسيحية)، مع الدين الإسلامي بمنطقة الجبل حتى بدأت تزول وتختفي تدريجيا بمرور الزمن والتاريخ.



1 - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج6، ص 110.

3 - الفتح الإسلامي لجبل نفوسة:

تعد منطقة جبل نفوسة عند الجغرافيين ضمن بلاد المغرب الكبير،[1] الذي يشمل رقعة جغرافية واسعة من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي في الغرب،[2] وهي من المناطق التي تعرضت للفتح الإسلامي في فترة مبكرة خلال خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت 23هـ/643 م) على يد قائد جيوشه عمرو بن العاص عام (23هـ/643م).

اتجه المسلمون عقب فتح مصر إلى بلاد المغرب استكمالا للفتح ونشر الإسلام، فيذكر البلاذري أن عمرو بن العاص بعد أن فرغ من فتح الإسكندرية: «سار في جنده يريد برقة وهي مدينة انطابلس فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشر ألف دينار».[3] في أواخر عام (21هـ/641م)، وفي الوقت الذي وجه فيه عمرو ابن العاص القائد عقبة بن نافع لفتح مناطق الداخل، ففتح المناطق ما بين برقة وزريلة وصارت للمسلمين،[4] وسار هو نفسه ناحية الغرب سالكا الطريق الساحلي حتى وصل إلى مدينة طرابلس عام (22هـ/642م) وبعد حصار طويل تمكن من فتحها.[5]

وتشير بعض المصادر إلى أن الذي أعان على فتح مدينة طرابلس هو حركة المد والجزر للبحر، فعند الجزر انحسرت مياه البحر عن أسوار المدينة وأعطت لبعض المسلمين مجالا دخلوا منه للمدينة، والسياق يطرح السؤال وهو: كيف يتسنى لعدد قليل من الرجال أن يدخلوا مدينة فيها العدد الكبير من جيوش وعساكر الروم؟ ! والواضح يبدو أن المدينة فتحت عنوة وليست بهذه السهولة وهذا ما تؤكده رواية البلاذري عندما قال: «سار عمرو بن العاص حتى نزل اطرابلس في سنة 22 فقوتل ثم افتتحها عنوة».[6] وبعد

1 - أطلق الجغرافيون والمؤرخون العرب الذين كتبوا عن تاريخ المنطقة اسم (المغرب) أو بلاد المغرب أو (جزيرة المغرب)، يقصدون بذلك المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى الصحراء الكبرى جنوبا، وقسم الجغرافيون العرب بلاد المغرب ثلاثة أقسام حسب قربها وبعدها من عواصم المشرق وهي: (المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى) والذي يهمنا هو المغرب الأدنى، لوقوع جبل نفوسة ضمن نطاقه، إضافة إلى أقاليم أخرى منها: برقة وطرابلس، وتونس، للمزيد انظر: عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، تقوم البلدان، تصحيح: رينود وماك كوكين ديسلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840، ص 122.

2 - عبد الرحمن بن خلدون، العبر، المصدر السابق، مج 6، ص 118-119؛ حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، مج1، بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، 1992، ص 21.

3 - أبو العباس احمد البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت: منشورات مؤسسة المعارف، 1987، ص 314؛ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 8.

4 - عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، تحقيق: عبد الله الطباع، بيروت الشركة العالمية للكتاب، 1987، ص 30.

5 - - المصدر نفسه، ص 30.

6 - البلاذري، المصدر السابق، ص 316.

فراغ ابن العاص من فتح مدينة طرابلس أمر جنوده بالإسراع إلى صبراتة (صبرة)[1] في نفس الفترة بقيادة عبد الله بن الزبير عام (22هـ/642م) فوصلوها صباحا ووجدوا أبوابها مفتوحة وأهاليها منشغلين بتسريح حيواناتهم إلى المراعي.[2]

وتحرك الجيش الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص إلى جبل نفوسة.ويلاحظ أن القائد عمرو بن العاص في خط سيره الساحلي على البحر يتوجه نحو الداخل لمسافات بعيدة، وهذا الأمر لوحظ بعد فتحه لبرقة فأرسل عقبة (ت 63هـ) إلى زويلة، وتكرر هنا مرة أخرى فبعد إتمام فتحه لطرابلس وصبرة يتوجه بنفسه نحو الداخل صوب جبل نفوسة، وكان يهدف من وراء ذلك توسيع مدي المناطق المفتوحة بالإضافة إلى الحيلولة دون اعتمادها على الإمدادات الداخلية[3] وهذا ما حدث عندما كان عمرو محاصرا لمدينة طرابلس حيث استنجد أهاليها بنفوسة، والمقصود بهم أهالي جبل نفوسة، وليس كما ذهب احد الباحثين المعاصرين حيث قصد بهم ودان.[4] والمعروف أن قبيلة نفوسة تقطن منذ بديات العصور الوسطى الجبل المعروف باسمهم إلى يومنا هذا، أما اغلب سكان مدينة ودان فهم من قبيلة مزاتة وليسوا نفوسة ! . وان ودان ت فتحها على يد يسر بن أبي ارطاة خلال محاصرة عمرو ابن العاص لمدينة طرابلس.[5] والملاحظ هنا (في فتوح الجبل) أن المصادر التي تناولت هذه الأحداث كانت بسيطة ونادرة من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تتطرق إلى التفاصيل مثلا: كيف كان موقف أهالي الجبل من الزحف الإسلامي؟ هل ابدوا مقاومة والى أي مستوى؟، وهل فتح الجبل عنوة أو صلحا؟ وإنما الروايات كانت مقتضبة جدا ومتضاربة أحيانا، حول م قام بفتح جبل نفوسة، فبينما يورد صاحب المؤنس في أخبار افريقية وتونس ذلك الأمر مرتين الأولي:يسند فيها افتتاح الجبل لعمرو ن العاص، والثانية في نفس الصفحة» «أن عمرو بن العاص أثناء محاصرته لمدينة طرابلس بعث يسر بن أرطأة ففتح ودان وجبا نفوسة».[6] نجد من يقول أن: «عمرو بن العاص رحمه الله افتتح نفوسة وكانوا نصارى، ومن نفوسة رجع بكتاب عمر رضه».[7]

1 - صبرة: ربما كتبت بسين مكسورة عوض الصاد، وهي كانت في القدم قاعدة ذلك الموضع كله، ولم يكن هناك أحصن منها، فتحها عمرو بن العاص، ينظر: التيجاني، المصدر السابق، ص 212.

2 - أبو محمد التجاني، المصدر السابق، ص 212.

3 - إحسان عباس، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن 9هـ، بيروت: دار صادر، 1967، ص 23.

4 - المرجع نفسه، ص 22.

5 - البكري، المصدر السابق، ص 660.

6 - محمد بن أبي القاسم القيرواني، المؤنس في أخبار افريقية وتونس ط3، بيروت:دار المسيرة للصحافة والطباعة والنشر، 1993، ص 37.

7 - المصدر نفسه، ص 656، الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 297.

إلا أن الأرجح ما ذهب إليه البكري لأنه الأقدم زمنا، وهو الرأي الذي قاله صاحب المؤنس أولا. ومن خلال النصين السابقين ندرك أن المسحية كانت منتشرة في الجبل، وان القائد عمرو بن العاص رجع من هناك على إثر كتاب الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه -بعد استئذانه في إكمال العمليات العسكرية، والتوجه لفتح افريقية فكتب إليه: «إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افريقية تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل»،[1] إلا أن عمر بن الخطاب كان له رأي آخر في هذه المسالة ورد عليه قائلا: « لا، ليست بافريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها احد ما بقيت»،[2] ونفهم من ذلك أن عمر بن الخطاب كان يخشى على جيش المسلمين من التوغل بعيدا في مناطق مجهولة بالنسبة إليهم. ومن المرجح أن جبل نفوسة قد تم فتحه صلحا، وأن الأهالي اقبلوا على الدين الإسلامي ولم يقاوموه نظرا لسماحته وعدالته بين الناس، ويفهم ذلك من خلال ما كتبه المؤرخون عن حركة الفتوح فالمدن والبلدان التي فتحت عنوة وواجه فيها المسلمون العقبات والأخطار هي التي كثيرا ما تهتم بها المصادر التاريخية وهذا ما لم تتم ملاحظته مع فتوح منطقة الجبل من ناحية، ، ومن ناحية أخرى فمما يدل على صحة فتح الجبل صلحا هو بقاء كنائس النصارى[3] دون المساس بها، وان سكان الجبل النصارى تحولوا تدريجيا إلى الإسلام فيما بعد.

وبرى جاك تيري أن فتح المسلمين لجبل نفوسة كان رمزيا ويدلل ذلك على أن الطريق التي يتبعها الجيش الإسلامي فيما بعد إلى افريقية هي التي فيما بين طرابلس جنوبا والجبال شمالا.[4] وهذا ما يؤيد صحة فتح الجبل صلحا وأن أهله أسرعوا إلى الدخول في الإسلام ولم يشكلوا عقبة لمرور الجيش الإسلامي لاستكمال فتح بلاد المغرب، لأنهم صاروا مسلمين بالفعل.

وتهمل المصادر ذكر أحداث تاريخية عن جبل نفوسة بعد رجوع عمرو بن العاص منه فهل ترك به حامية؟ كما لا نجد أخبارا تتحدث عن كيفية دخول الأهالي في الإسلام؟ كما لا يدري الباحث ما هي المدن التي فتحت في الجبل؟ لان المصادر التاريخية لا تشير إلى ذلك، إلا من خلال ما ورد في الكتابات المتأخرة أن مدينة شروس[5] تعد من مدن الجبل

1 - عبد الحكم، المصدر السابق، ص 33، المصدر السابق، ص 316.

2 - المصدر نفسه، ص 316، الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص 72-73.

3 - شاهدت عند زياراتي لقرى ومدن الجبل مجموعة كنائس ما زالت أثارها دالة على وجودها، كما أن ملحقا يسير الشماخي بعنوان: (تسمية مشاهدة الجبل) يذكر عدة كنائس في الجبل.

4 - جاك تيري، تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، مصراته: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 2004، ص 210-211.

5 - شروس: من اكبر مدن الجبل ويدل على ذلك اتساع الرقعة التي بتناثر فيها خرائب وآثار المدينة، ولم يتبق

التي فتحها ابن العاص، كما أشار لذلك ابن غلبون قائلا: «وارتحل عنها [يقصد صبراتة] لشروس مدينة نفوسة فافتتحها».[1]

ويتضح أن هذه المدينة التي تعد أهم مدن الجبل حينذاك، هي أقصى نقطة وصل إليها الجيش الإسلامي في أول مرحلة من مراحل الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، وأول اتصال لجبل نفوسة بالإسلام.



منها شيء قائما سوى مسجد الشيخ أبو معروف، وبقايا قصر متساقط، وكانت هي العاصمة خلال العصور الوسطى، وتقع في أعالي وادي شروس الفاصل بين منطقتي مرقس وتندميرة بمنطقة الحرابة، ويحيط بالمدينة الجبال من جميع الجهات ما عدا الجهة الشمالية الغربية حيث ممر الوادي ومدخل المدينة للقادم من الساحل، زرتها عامي: (2002-2004م)، ينظر الصورة رقم (1).

1 - أبو عبد الله محمد بن خليل غليون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخيار، تصحيح وتعليق: الطاهر احمد الزاوي، طرؤابلس: مكتبة النور، 1967، ص 19.

4 - دور جبل نفوسة في بلاد الغرب الإسلامي: (سياسيا، اقتصاديا):

تمهيد:

بعد أن تمكن عمرو بن العاص من فتح مدينة شروس بجبل نفوسة نلاحظ صمت المصادر التاريخية عن متابعة الأحداث فيس الجبل لتعود مرة أخرى خلال أوائل القرن (الثاني الهجري/الثامن الميلادي) مع انتشار المذهب الإباضي[1] في بلاد المغرب الأدنى، وإقبال أهالي الجبل عليه.

والفترة التاريخية المسكوت عنها من تاريخ الجبل دامت حوالي 120 سنة تقريبا !، وهي فترة طويلة اغلبها زمن الدولة الأموية في المشرق، ومن الطبيعي أن تزخر بأحداث سياسية واجتماعية وثقافية، إلا انه من الواضح أن الأهالي قد ثبتوا على الدين الإسلامي وتغلغل في نفوسهم وأصبحوا مواطنين في الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا، ولا شك أن منطقة الجبل تأثرت بمشاكل محيطها الجغرافي في بلاد المغرب عامة، وخاصة من حيث عدم رضاهم على سياسة بعض الولاة الأمويين التعسفية، وأخذت تسير نحو التزم من جراء تلك السياسة الجائرة التي جرى عليها بعض خلفاء بني أمية وبعض الولاة في اغلب بلاد المغرب، ومنها على سبيل المثال: سياسة يزيد بن أبي مسلم (102-103هـ)، والذي اعتبر المغاربة في مرتبة أدنى من العرب الفاتحين، وفيئا للمسلمين، وقام بتخميسهم وأمرهم بالبقاء في مناطقهم، وفرض عليهم الجزية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب، بل أراد وشم أيدي حرسه منهم تمييزا عن غيرهم،[2] كما نلاحظ أن مثل تلك السياسة الجائرة تتكرر مرة أخرى مع عبيد الله بن الحبحاب (116-123هـ)، عندما أراد واليه على طنجة عمر بن عبد الله المرادي: «أن يخمس مسلمي البربر وزعم أنهم من فيء المسلمين، وذلك شيء لم يرتكبه احد قبله»[3] ويبدو أن مثل

1 - المذهب الإباضي: هو احد المذاهب الإسلامية ويعد من أقدمها نشوءا وينتسب إلى عبد الله بن إباض، إلا أن المؤسس الحقيقي للمذهب هو: أبو الشعثاء جابر بن زيد الازدي، احد كبار التابعين ولد عام 21هـ في عمان، إلا انه عاش في العراق وتوفي سنة 92هـ، وقد أثيرت في أواخر القرن الأول الهجري بعض القضايا الفقهية والكلامية وحصرها الشهرستاني في أربعة أصول رئيسية: (الصفات والتوحيد فيها - القدر والعدل- الوعد والوعيد- السمع والعقل والرسالة والأمانة)، ودرس علماء المسلمين تلك القضايا وكل منهم انتهى إلى رأي معين صار مذهبا فيما بعد من بينها مذهب الإباضية، وكل المذاهب الإسلامية تتفق في أصول الدين، واختلافهم كان في الفروع، ينظر: علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى القاهرة: مكتبة وهبة، 1964، ص 59.

2 - أبو إسحاق إبراهيم بن الرقيق، تاريخ افريقية والمغرب تحقيق : عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 64.

3 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، ط3، بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، 1998، مج 4، ص 416ظن أبو إسحاق بن الرقيق، المصدر السابق، ص 73.

تلك السياسات التي ابتعد فيها بعض الولاة عن المبادئ السامية التي جاء بها الإسلام والمتمثلة في اعتبار جميع المسلمين سواسية لا فرق بينهم إلا بالتقوى، قد أثرت على مختلف مناطق المغرب ومن بينها منطقة جبل نفوسة التي استجاب أهلها لدعاة المذهب الإباضي[1] الذي انتشر منذ أوائل القرن الثاني للهجرة، وذلك بدخول سلمة بن سعيد بلاد المغرب قادما من البصرة لنشر المذهب سنة (105هـ / 720م) تقريبا واستطاع كسب الأنصار والمؤيدين في طرابلس وجبل نفوسة.[2] وبذلك بايعوا في فترات لاحقة أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[3] في ثورته بالمغرب الأدنى، وكانت ولايته عام (758/140م).[4] أي في السنوات الأولى لقيام الدولة العباسية وتقدم أبو الخطاب نحو مدينة طرابلس واستولى عليها، وسمح للوالي العباسي بالمغادرة إلى المشرق وولى عليها عبد الله رحيم، وزحف إلى القيروان وحاصرها، ثم تقاتل مع ورفجومة بقيادة عبد الملك بن الجعد، وتمكن من هزيمتهم سنة (141هـ /759 م)[5] وولى عليها عبد الرحمن بن رستم، وبذلك صارت طرابلس كلها بما فيها (جبل نفوسة) من سرت[6] شرقا إلى القيروان[7] غربا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا تحت سيطرة أبي الخطاب المعافري، والملاحظ هنا أهمية منطقة الجبل بمشاركتها في الأحداث التاريخية، وإسهامها في تشكيل الخرائط السياسية ببلاد المغرب، لما يتمتع به الجبل من أهمية جغرافية، ولوقوع في نهايات الطرق التجارية القادمة من وراء الصحراء.[8]

عزم أبو جعفر المنصور القضاء على إمامة أبي الخطاب التي أصبحت خطرا يهدده في المغرب، ولهذا أرسل قواته الواحدة تلو والأخرى، ومنها على سبيل المثال: جيش بقيادة

1 - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ط7، القاهرة: مكتبة النهضة العربية، 1964، ج2، ص 207.

2 - إسماعيل محمود عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة، 1976، ص 54.

3 - أبو الخطاب: هو عبد الأعلى بن السمح أبو الخطاب المعافري، أصله من اليمن، واحد حملة العلم الخمسة الذين درسوا في البصرة على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ينظر: أبو زكرياء يحيى الوارجلاني، السير وأخبار الأئمة، مخطوط، ورقة 6-8: مكتبة كلية الدعوة الإسلامية، (ب.ت).

4 - المصدر نفسه، ورقة 8.

5 - أبو إسحاق بن الرقيق، المصدر السابق، ص 104؛ احمد الأنصاري، المصدر السابق، ص 53، محمود شاكر التاريخ الإسلامي، ج5، ط5، بيروت: لمكتب الإسلامي، 1991، ص 1347.

6 - سرت: من المدن القديمة في ليبيا، واغلب سكانها من قبائل مناداسة وفنطاس، وتطلق سرت على المنطقة الواقعة بين قصور حسان والعقلية، وهي من الأراضي الطرابلسية فتحها المسلمون عام 22هـ، كان واليها زمن أبي الخطاب: عمرو بن يمكتن، ينظر: الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 188.

7 - القيروان: مدينة إسلامية في تونس، أسسها عقبة بن نافع في عهد الخليفة بن عفان، وتقع في سهل فسيح، وتبعد عن البحر المتوسط حوالي 36 ميلا، وحوالي 100 ميل من تونس، يحيط بها سور جميل من الآجر، وأصبحت من المراكز الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي لإشعاع الثقافة العربية الإسلامية ينظر: الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ج2 ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ص 87.

8 - جاك تيري، المرجع السابق، ص 408.

العوام بن عبد العزيز البحلي الذي هزمه أبو الخطاب في منطقة سرت فأرسل جيشا آخر بقيادة أبي الأحوص عمر بن الأحوص العجلي الذي هزم هو الآخر أما جيش أبي الخطاب بمغمداس[1] وأخيرا تمكن ابن الأشعث من هزيمة أبي الخطاب وقتله في معركة بتورغا[2]* [3].

وبعد وفاة أبي الخطاب سنة (144هـ/762م)، تراجع واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط، ويشير الشماخي إلى ذلك قائلا: «وقام عبد الرحمن بن حبيب يلتمس عبد الرحمن بن رستم وفر رحمه الله إلى المغرب... وما معه إلا ابنه عبد الوهاب وغلام...حتى بلغوا بالمغرب سوفجج جبل منيع».[4] وهناك قامت الدولة الرستمية، إلا أن جبل نفوسة ظل خارج سيطرة ابن الأشعث إلى أن انضم إلى الرستميين في عهد الإمام عبد الوهاب الرستمي.

أ) جبل نفوسة والدولة الرستمية:

لم تشهد منطقة المغرب الأوسط قيام دولة مستقلة عن المركز بالمشرق الإسلامي إلا بعد قيام الدولة العباسية، فبعد هزيمة الإباضيين بتاورغاء سنة (144هـ/762م)، وبمقتل أبي الخطاب، تراجع عبد الرحمن بن رستم إلى منطقة المغرب الأوسط وهناك أقام الدولة الرستمية سنة (160هـ/778م).[5] وكانت عاصمتها تاهرت.[6] وحول تأسيسها أشار الدرجيني إلى ذلك قائلا: «إن جماعة أهل الدعوة اتفقوا على أن ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حصنا لهم، فأرسلوا رجالا من ذوي المعرفة، وفرقوهم في الجهات يتخيرون مكانا يصلح لما حاولوه، ورجعوا وقد وقع اختيارهم على تاهرت، فدلوهم عليها، فاتفق جمهورهم مع أهل تاهرت القديمة على شيء معلوم يأخذونه على غلتها، وقد كانت قبل ذلك رياضا لا عمارة فيها إلا السباع والهوام».[7]

---

1 - مغدامس: تقع ناحية مدينة سرت، أقام به جيش عقبة بن نافع سنة 49هـ قبل انطلاقه إلى الجنوب الليبي، ومغدامس تمر بها طريق القوافل التجارية التي تربط بين المشرق والمغرب الإسلاميين ينظر ابن خرادذبة، المسالك والممالك، تقديم: محمد مخزوم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988، ص 80.

2* - تاورغا : بلد جنوبي مصراته بنحو 40 كلم، بها نخل كثير ، ينظر : الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 79.

3 - الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 12، الشماخي، المصدر السابق، ص 132.

4 - الشماخي، المصدر السابق، 133.

5 - الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 15.

6 - تيهرت: مدينة جزائرية، وهي اسم لمدينتين متقابلتين يقال لأحدهما تاهرت القديمة، وللأخرى المحدثة وهي مسورة ولها أربعة أبواب، اتخذها الرستميون عاصمة لدولتهم، وكان لها دور ثقافي وتجاري كبير لموقعها المميز حيث تتوسط الطرق العابرة للصحراء مما مكنها ن الثراء، ينظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 256؛ جاك تيري المرجع السابق، ص 210-211.

7 - الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، تحقيق: إبراهيم طلاي، قسنطينة: مطبعة البعث، 1974، ص 41.

وتشير المصادر الجغرافية إلى الميزات الطبيعية التي تتمتع بها مدينة تاهرت مما سمح لها القيام بأنشطة اقتصادية هامة، ومنها على سبيل المثال: اعتدال مناخها ووفرة المياه وخصبة التربة، والأمر الثاني وقوعها على مفترق الطرق التجارية التي تربط الشمال بالجنوب والشرق بالغرب. فعلى المستوى الأول كانت تاهرت تتمتع بوفرة المياه فهي واقعة: « على نهر يأتيها من جهة القبلة... ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش شرب أرضها وبساتينها.[1] ويؤيد ذلك قول الجغرافي الشريف الإدريسي: «بمدينة تاهرت مياه متدفقة، وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون بها ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة»[2]. ونتيجة لتوفر المياه ازدهر النشاط الزراعي ويشير الاصطخري إلى خصوبة التربة واتساع الأراضي المزروعة.[3]

وبالإضافة إلى عناية المصادر التاريخية بالأهمية الزراعية لتاهرت فقد أسهبت تلك المصادر في الإشادة بالنشاط التجاري الذي انعكس بشكل كبير على التطور العمراني للمدينة خلال فترة بسيطة من تأسيسها، فيذكر ابن الصغير انه قد: «استعملت السبل إلى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة فأقاموا على ذلك سنتين... والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون».[4]

والذي يعنينا من أمر هذه الدولة هو معرفة مدى علاقتها بجبل نفوسة في مختلف المراحل التاريخية؟ وهل استمر الجبل في ولائه للرستميين؟ وللإجابة على هذه التساؤلات نحاول إستقراء الأحداث التاريخية في المنطقة من خلال ابرز المصادر[5] التي تطرق البعض منها إلى المواقف الايجابية الكثيرة للجبل تجاه دولة بني رستم ودعمها اللامحدود من اجل حمايتها والدفاع عنها بكل الأساليب. وفي الوقت نفسه تحدثت تلك المصادر عن المواقف المعارضة لبعض مواطني الجبل لحكام تاهرت (سياسيا، واجتماعيا، وفقهيا)، وسنعرج عليها في حينها. إلا أن أهالي الجبل الموالين لتاهرت، وخاصة المشايخ والعلماء وقفوا في وجه تلك الحركات، ومنعوا انتشار أفكارها بمختلف الصور والوسائل ومنها:

---

1 - البكري، المصدر السابق، ج2، ص 733-734.

2 - الإدريسي، المصدر السابق، ج1، 256.

3 - ابن إسحاق إبراهيم الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق : محمد جابر وشفيق غربال، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 1961، ص 34.

4 - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق : محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص36-37.

5 - المصادر التي تناولت الأحداث التاريخية الخاصة بالحركات السياسية والاجتماعية المناوئة للرستميين (النفاثية- الخلفية) اغلبيها مصادر إباضية وهبية، ولم نعثر على مصادر أخرى تعبر على وجهة نظر أصحاب تلك الحركات حتى نتمكن من تقييم الموقف التاريخي بشكل أكثر موضوعية وحيادية.

(المراسلات، وتأليف الكتب، والحوارات العلمية، وبالقوة العسكرية إذا تطلب الأمر).

في الحقيقة لم ينضوي الجبل سياسيا تحت هذه الدولة إلا في عهد الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم،[1] أما في عهد مؤسسها عبد الرحمن بن رستم كانت العلاقة فيما يبدو روحية، تجمعهم وحدة المذهب، لأنهم جميعا أساسا كانوا يناضلون في معركة واحدة من اجل إقامة كيانهم السياسي. ودور الجبل في هذه المرحلة المبكرة من عمر الدولة يكاد ينحصر في رحيل عدد كبير من شيوخه وأتباعهم، من منطقة الجبل إلى المغرب الأوسط حيث إقامة عبد الرحمن الرستمي، وهم بذلك سيشكلون الخلايا الأولى للدولة الرستمية. وهذا ما عبر عنه عبد الوهاب بن رستم في مقولته:»إنما قام هذا الدين على سيوف نفوسة وأموال مزاتة«.[2] يقصد بالدين هي قيام الدولة على قوة قبيلة نفوسة العسكرية ونفوذها السياسي لأنها هي القبيلة التي ساندت ثورة أبي الخطاب وإمامته في إقليم طرابلس وتستمر هنا لدعم دولة الرستميين. وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في قيام الدول. فقبيلة نفوسة تمثل الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، وقبيلة مزاتة تمثل الجانب المادي (المالي) وهو قوام أولئك الجند.[3] كما كان لقبيلة نفوسة (الجبل) الدور البالغ في استمرارية الدولة الرستمية في مختلف عهود أئمتها، ففي أوقات الحرب قدمت الرجال والعتاد، ودافعت الأعداء، ونجدها تساهم في التنظيم الإداري، وتسيير الشؤون الداخلية في السلم، فوظائف: «أحكام بيوت الأموال، وعقد تقدم القضاء، وأحكام المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق إنما يلي أمرها نفوسة الجبل».[4] وفي فترات تاريخية أخرى من عمر الدولة اهتموا بإصلاح الأسواق، وقمع كل من يحاول نشر الفساد والفسق، ويقول الشماخي في هذا الصدد:»فأصلح الله الفساد على أيديهم حتى عاقبوا القصاب على نفخ الشاه، ومنعوا الحمال على دابته أن يحمل عليها فوق طاقتها، وانقطعت مادة الفتنة وعمرت المساجد«.[5] وفي عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي ضيقت عليه المعتزلة[6] في تاهرت وكثر القتل بين الطرفين:

1 - عبد الوهاب بن رستم : هو الإمام الثاني للدولة الرستمية (171-208هـ787--823م)، ودام حكمه حوالي 40 عاما، أقام في جبل نفوسة سبع سنوات، وله كتاب (نوازل نفوسة) يرد فيه على المشكلات الفقهية النازلة في الجبل، وفي عهده امتدت الدولة الرستمية إلى أقصى حدودها من سرت شرقا إلى تلمسان غربا، ينظر: ابن الصغير، المصدر السابق، ص 43.

2 - الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 37.

3 - ابن خلدون، المقدمة ، ط2، تقديم: محمد الإسكندرية، بيروت: دار الكتاب العربي 1998، ص 153.

4 - الشماخي، المصدر السابق، ص 221.

5 - المصدر نفسه، ص 221.

6 - المعتزلة: اسم لإحدى الفرق الإسلامية، ولها مدرسة في علم الكلام، آنشأها واصل ابن عطاء، وعمرو بن عبيد وعرفت الفرقة بهذا الاسم لاعتزالهما حلقة الحسن البصري لما خالفاه بالقول بان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن

«فلما رأى الإمام شدة شوكتهم وكثرة عددهم أرسل إلى جبل نفوسة والى عامله بها أن يمده بجيش يتضمن شجعانا وفرسانا عارفين بأبواب الحرب ومبارزة الأبطال، وعلماء بفنون التفسير والرد على المخالفين، والحلال والحرام».[1]

وهذا النص يبين اعتماد الرستميين على الجبل في مختلف المستويات العسكرية والعلمية، وهذه الملاحظة تتكرر دائما مع اغلب للائمة الرستميين في علاقتهم بجبل نفوسة، وهؤلاء الاخيرون كان لهم الإسهام البالغ في إجبار أبي العباس عبد الله الأغلبي[2] في رضوخه لمصالحة عبد الوهاب بن رستم عندما حاصره في مدينة طرابلس سنة (196هـ/812م)، واتفق الطرفان على أن تكون مدينة طرابلس والبحر الأغالبة، وما كان خارج الأسوار حتى سرت للرستميين[3] وبذلك سيطر الإباضيون على كل دواخل البلاد أي الصحراء والجبل كما سيطروا على الطرق العابرة للصحراء من ليبيا نحو مصر وافريقية والى بلاد السودان الغربي والأوسط.

ومن مواقف الجبل المعارضة للرستميين والتي اشرنا لها أنفا، منها الحركة النفاثية: إلى الشيخ فرج بن نصر النفوسي المعروف بنفاث، وتعترف المصادر الإباضية بطول باعه في العالم والثقافة ودرايته بالهندسة والبناء،[4] وترى سبب معارضته طموحه السياسي، ورغبته في عمالة قنطرارة[5] بعد وفاة عاملها أبو يونس وسيم بن يونس النفوسي، إلا أن الإمام جعل سعد بن وسيم بن يونس النفوسي عاملا على قنطرارة،[6] الأمر الذي عجل بخروج نفاث على الحكم الرستمي، وكانت له أفكار وآراء في الحكم والفقه ويبدو إنها لاقت قبولا واستحسانا في بعض القرى والمدن في الجبل وخاصة في الجهة الغربية. إلا إننا نلاحظ بروز بعض العلماء النفوسيين لصد أراء نفاث ومحاربتها منهم على سبيل

ولا كافر ولمنه فاسق في منزلة بي منزلتين، وانشقت المعتزلة فيما بعد إلى 22 فرقة، ينظر: إسماعيل العربي، معجم الفرق والمذاهب الإسلامية ، المغرب: دار الآفاق الجديدة، 1993، ص 342.

1 - الشماخي، المصدر السابق، ص 154، سليمان الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج2، (د.ت)، ص 118.

2 - أبو العباس عبد الله الأغلبي: ثاني أمراء الدولة الأغلبية (21 شوال -196 6ذي الحجة 201هـ/812-817م) شارك أباه في تسيير أمور الدولة، وخلفه في الحكم بعد وفاته، ينظر: محمد الطالبي، الدولة الأغلبية ترجمة: المنجي الصيادي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 177-180.

3 - الشماخي، المصدر السابق، ص 1601-161.

4 - أبو زكريا الوارجلاني، السيرة وأخبار الأئمة، مخطوط، ورقة 33؛ أبو العباس الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، ص 79-80.

5 - قنطرارة، (تيجي حاليا) مدينة في وسط سهل الجفارة لها علاقات وطيدة مع جبل نفوسة، برزت في ميادين العلم والثقافة . كما اشتهرت بالازدهار العمراني والزراعي . ينظر : سليمان الباروني، المصدر السابق، ص 196-197.

6 - الدرجيني، المصدر السابق، ص 78.

المثال: الشيخ أبو نصر التمصمصي، الذي: «دار الجبل أربعين مرة يحذر الناس من فتنة نفاث»،[1] وكذلك الشيخ مهدي الويغوي الذي ألف كتابا في هذا الخصوص سيأتي الحديث عليه في حينه، وأيضا للشيخ عمروس بن فتح دور فكري لمحاربة نفاث، وهذه الجهود تحسب لصالح دور الجبل في الدفاع عن الدولة الرستمية.

والحركة الثانية التي زعزعت أركان بني رستم في الجبل هي الحركة الخلفية: نسبة إلى خلف بن السمح المعافري، وكان والده واليا من قبل الإمام الرستمي على جبل نفوسة، ولما توفي السمح رأى بعض الناس تولية ابنه خلف بعده، الأمر الذي لم يستحسنه الإمام عبد الوهاب دون إذنه وموافقته. وأرسل إليهم كتابا جاء فيه:»...والذي كتبتموني به من وفاة السمح وتولية بعض الناس خلفا، خلفا منهم ورد أهل الخبر ذلك، فان مولي خلفا بغير أذن إمامه قد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابي هذا فليرجع كل عامل استعمله اسمح إلى عمله الذي ولي عليه إلا خلف بن السمح، فحتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم لعلكم تفلحون».[2] وكان رد فعل خلف وأتباعه على كتاب الإمام عبد الوهاب هو المطالبة بالاستقلال الجهة الشرقية من جبل نفوسة عن تاهرت والاعتراف بخلف إماما بدل إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وتعللوا ببعد المسافة بين البلدين.[3] ويبدو أن أفكار الخلفيين انتشرت في مناطق (يفرن وككلة وبابل وتاكبال)، وقام ولاة الجبل الموالين للرستميين بالجهة الشرقية بالتوالي محاربة خلف وحركته، منهم الشيخ أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني، الذي اصطدم مع خلف في أكثر من معركة، ولم يتمكن من القضاء على هذه الحركة حتى توفي، وخلفه في الولاية الشيخ العباس بن أيوب الذي شن حربا طويلة على خلف وأتباعه حتى مات خلف.[4]

ونرجع مرة أخرى للحديث عن حاجة الرستميين لرجال الجبل وقوتهم العسكرية، فقد استنجد خامس الأئمة الرستميين الإمام أبو اليقظان بن افلح في محنته بتاهرت مع أبي مسألة «فلما رأى طول الحرب ما رأى كتب إلى جبل نفوسة يستفزهم».[5] ولم يتوانى أهالي الجبل في تلبية النداء الرستمي وشاركوا في تلك الحروب. ولذلك ربما أدرك

1 - الشماخي، المصدر السابق، ص.

2 - الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص 69.

3 - أبو زكريا الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 28؛ الدرجيني، ج1، ص 70؛ الشماخي، ص 181.

4 - سليمان الباروني، المرجع السابق، ص 177.

5 - ابن الصغير، المصدر السابق، 86، كما يورد المحقق أن هناك رواية أخرى وهي (يستنفرهم)، وهي الأنسب والسياق اللغوي والتاريخي.

الأغالبة أهمية جبل نفوسة بالنسبة للدولة الرستمية فقاموا بالاستيلاء على بلاد الجريد (الجنوب التونسي) سنة (224هـ/838م) لعزل جبل نفوسة عن الرستميين في تيهرت من ناحية، ومن ناحية أخرى للسيطرة على الطرق التجارية الصحراوية التي كانت محل صراع وقتذاك.[1]

ولما كانت منطقة الجبل تابعة للدولة الرستمية فالأخيرة كانت تعين الولاة لتسيير أمور الولاية، ومن ابرز من تولي أمور الجبل، نذكر منهم على سبيا المثال: أبا الحسن أيوب بن العباس، وعبد الحميد أبو عبيدة الجناوني نسبة إلى قرة إيجناون،[2] والعباس بن أيوب، واليأس بن منصور النفوسي، وغيرهم وسوف نتطرق لهذا الموضوع ببعض التفصيل في الفصل الثالث المعنون بـ: (الوظائف العامة للعلماء).

وكان الأئمة الرستميون يشجعون حركة العلم والعلماء، ومن بينهم من كان له نشاط علمي واضح، كما تشير بعض المصادر أن بيتهم:» احتوى على علوم كثيرة من فقه وإعراب ولغة وفصاحة وعلم نجوم وعن بعضهم قال: معاذ الله أن يبكون عندنا امة لا تعلم أين بات القمر، وقيل إن عبد الوهاب بات مع أخته يتعلمان مسائل الفرائض فلم يطلع عليهما الفجر إلا وهما قد تعلماها جميعا».[3] وكان الإمام عبد الرحمن يهتم بالعلوم الإسلامية، وله تفسير للقران الكريم[4] وأقام الإمام عبد الوهاب بجبل نفوسة سبعة أعوام واخذ يدرس العلوم الفقهية بمسجد ميري في بني زمور.[5]

وكان الإمام الثالث افلح بن عبد الوهاب من الأدباء وله منظومة شعرية مشهورة في ثمانية وثمانين بيتا، تحث الطلاب على طلب العلم، والجد والاجتهاد، تقتبس[6] منها:

العلم أبقى لأهـل العـلـم آثارا *** وليلهم بشموس العلم قد نارا

1 - جاك تيري، المرجع السابق، ص 228.

2 - ايجناون: من قرى الجبل وتبعد عن مدينة جادو حوالي 4 كيلو مترات، وعن مدينة طرابلس حوالي 180 كلم تقريبا، وهي محاطة بثلاثة جبال من: الشرق والغرب والجنوب وهي اقرب إلى جبال الشرق، وبحدها من الغرب جبل تقبع فوقه قرية مزغورة وتندباس وجماري، ومن الشرق جبل فوقه قرية يوجلين واوشباري وثلاث اموران وقرية تموجط وهي في الأسفل منهم، وقرية اجناون مرت عبر التاريخ بأكثر من مرحلة في بنائها الأولي كانت في (سيح اقمار) ومعناها: فضاء الحصان، والثانية تحت الجبل، وكانت تشتهر قديما بصناعة الفخار أو القلال. زرتها عام 2004ف، ينظر الصورة رقم (2).

3 - المصدر نفسه، ص 162.

4 - أبو الربيع الوسياني، سير أبو الربيع، مخطوط، ورقة 104، مكتبة: احمد الفساطوي، طرابلس، بدون تصنيف.

5 - الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 26؛ الشماخي، المصدر السابق، ص 159.

6 - نقلا عن الشيخ سليمان الباروني، المرجع السابق، ص 190.

يحيى به ذكرهم طول الزمان وقد *** يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي وإن مات ذو علم وذو ورع *** إن كان في منهج الأبرار ما مارا

أو إنها غبرت أشخاصهم ومضوا *** ما مات عبد قضى من ذاك اوطارا

وذو حياة على جهل ومنقصة *** ولا يبالي أخيرا نال أو عارا

حياته عدم في طول مدته *** كميت قد ثوى في الرمس إعصارا

لله عصبة أهل العلم أن لهم *** في كل أفق من الأفاق أنوارا

نالوا الأماني به طرا وبان لهم *** فضل على الناس غيابا وحضارا

*****

العلم علم كفى بالعلم مكرمة *** ومن يرد غير خير العلم ما اختارا

كم جاهل بأمور الدين مختبط *** والجهل جهل كفى بالجهل إدبارا

العلم عند اسمه أكرم به شرفا *** للمرء إذ يكتسي بالعلم اطمارا

ما للفتى غير نور العلم من رتبو *** الجهل عند اسمه أعظم به عارا

يشرف اعلم للإنسان منزلة *** ويجتني من جناه العذب اثمارا

العلم فخر علا عن كل مرتبة *** ويرفع العلم للإنسان اقدارا

العلم در له فضل ولا احد *** محص له كل عقل دونه حارا

كما كان الإمام افلح: «عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم دلت على ما له من الفضل والكمال والعدل من طول الباع وفي غزارة العلم وقوة الإدراك».[1] ويستطرد الباروني في حديثه عن هذا الإمام:»انه تصدر للتدريس وإلقاء العلوم على اختلاف فنونها قبل أن يبلغ الحلم وكانت عليه أربع حلق...وقد بلغ في العلوم كلها حتى الرياضية والتنجيم مبلغا لا يدرك شأوه».[2]

ولما كان الحكام الرستميون بهذا المستوى العلمي، والاهتمام بتطور الحركة الثقافية، فمن الطبيعي أن يعكس على رعاياهم، ومنهم أهالي جبل نفوسة الذين كانوا على

1 - سليمان الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج2، ص 187.

2 - المرجع نفسه، ص 194.

الرغم من ذلك يهتمون أساسا بالجوانب العلمية والثقافية حتى من قبل انضوائهم تحت الدولة الرستمية، واستمر ازدهار الحركة العلمية والثقافية بالجبل حتى بعد سقوط الدولة الرستمية، وعبر الشماخي عن ذلك بقوله: «نفوسة بلغت في العلم والتقي والعدل والورع مبلغا عظيما يكاد أن يكون حاكيه كاذبا».[1]

وتأكيدا على أهمية جبل نفوسة بالنسبة للدولة الرستمية أود الإشارة إلى أن: من نتائج انهزام أهالي الجبل في معركة مانو[2] إمام جيش الأغالبة تراجع وإنهيار الدولة الرستمية، كما وصف الباروني ذلك قائلا:» وكانوا [نفوسة] حصنها المنيع، وسيفها البتار، ودرعها المتين، ولما ضعفوا [أي بعد مانو] أخذت في التقهقر [أي الدولة الرستمية] بطمع الأعداء فيها وتسلطهم عليها حتى اضمحل أمرها».[3] وتوارث البيت الرستمي حكم الدولة -التي كان من المفترض أن تكون دولة شورى وانتخاب- إلى أن سقطت في عام (296هـ/909م) على يد العبيديين الفاطميين.[4]

ويلاحظ بعد سقوط الدولة الرستمية، لم يدخل العبيديون الغالبون لولاية جبل نفوسة، وبقي خارج دائرة حكمهم بالمغرب، ونتيجة للمقاومة العنيفة التي لاقاها العبيديون من قبل أهالي الجبل اكتفوا منهم بالطاعة الاسمية.[5] وليس هذا فحسب بل ظلت منطقة الجبل بعيدة عن متناول اغلب الدول التي قامت في الغرب الإسلامي

1 - المصدر نفسه، ص 267.

2 - معركة مانو: وقعت هذه المعركة بين جبل نفوسة والاغلبة عام (283هـ/896م) في ولاية افلح بن العباس على الجبل، بالقرب من قصر مانو (مارث) جنوب قابس، عندما أراد إبراهيم بن احمد الأغلبي الزحف بجيشه لمحاربة ابن طولون فاعترضته نفوسة وقبائل أخرى بجيشها فتمكن الأغالبة من إلحاق الهزيمة بجيش الجبل وقدر عدد القتلى باثني عشر ألف قتيل، أربعة ألاف من نفوسة والباقي من غيرها، ومات في تلك المعركة أربعمائة عالم من أهل الجبل منهم على سبيل المثال: عمروس بن فتح المساكني، ومعبد الجناوني، وجانا التترغتي، وميال التلجامي، وشيبة الدجي، وماطوس وغيرهم ينظر: سليمان الباروني، المصدر السابق، ج2، ص 280-284. معركة مانو: وقعت هذه المعركة بين جبل نفوسة والاغلبة عام (283هـ/896م) في ولاية افلح بن العباس على الجبل، بالقرب من قصر مانو (مارث) جنوب قابس، عندما أراد إبراهيم بن احمد الأغلبي الزحف بجيشه لمحاربة ابن طولون فاعترضته نفوسة وقبائل أخرى بجيشها فتمكن الأغالبة من إلحاق الهزيمة بجيش الجبل وقدر عدد القتلى باثني عشر ألف قتيل، أربعة ألاف من نفوسة والباقي من غيرها، ومات في تلك المعركة أربعمائة عالم من أهل الجبل منهم على سبيل المثال: عمروس بن فتح المساكني، ومعبد الجناوني، وجانا التترغتي، وميال التلجامي، وشيبة الدجي، وماطوس وغيرهم ينظر: سليمان الباروني، المصدر السابق، ج2، ص 280-284.

3 - المرجع نفسه، ص 280.

4 - الدولة الفاطمية في المغرب: (296-362هـ/909-972م) قامت على يد عبيد الله المهدي الذي نزل بمدينة رقادة عاصمة الأغالبة في ضاحية القيروان في 29 ربيع الثاني 297 هـ بعد أن فتحها أبو عيد الله الشيعي في العام الفائت، فبويع له بالخلافة، وبذلك قامت الدولة الفاطمية ببلاد المغرب الإسلامي، ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخه المغرب العربي، ج3، القاهرة: منشأة المعارف بالإسكندرية، 19، ص57-248.

5 - حسين مؤنس، المرجع السابق، مج-2ج3، ص 407؛ وإحسان عباس، المرجع السابق، ص 83.

طيلة العصور الوسطى إلى مجيء الأتراك العثمانيين، الذين دخل الجبل تحت حكمهم في بداية العصر الحديث.[1] إلا أن الجبل تعرض خلال تلك الفترة لعدة غزوات وغارات كان لها الأثر البالغ على تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي.

ومن ضمن ما تعرضت له منطقة جبل نفوسة من محن عام (310هـ/922م) حيث يشير ابن عذارى:»أن نفوسة خالفت على عبيد الله وقدموا على أنفسهم أبا بطة، فاجتمع إليه عدد كبير واشتدت شوكته، فاخرج أيهم عبيد الله علي بن سليمان الداعي في جمع كثير».[2]

ومن خلال هذا النص نطرح بعض التساؤلات ونستخلص منه بعض المعطيات، فالتساؤل هو ماذا يعني ابن عذارى بقوله: «خالفت نفوسة على عبيد الله؟» هل خالفت تعني: ثارت نفوسة على عبيد الله؟ وهذا ما ذهب إليه الأستاذ إحسان عباس،[3] إلا إنني أرى أن مخالفة نفوسة للعبيديين لا تعني الثورة، لان الذين يثورون عادة ما تكون ثورتهم ضد قوى خارجية مسيطرة، ولا اعتقد -حسب المصادر المتاحة- أن العبيديين قد سيطروا على جبل نفوسة سيطرة عسكرية وسياسية بالمعنى الصحيح. فالمخالفة هنا لا تعدو أن تكون إلا صد لخطر داهم ومؤقت، ولذلك قاوم أهالي الجبل العبيديين وتمكنوا من إحراز النصر عليهم، إلا أن العبيديين عاودوا الكرة مرة أخرى بقيادة: علي بن سليمان الذي رجع في العام الموالي (311هـ/923م) للجبل وتمكن من تحقيق النصر، وهدم احد الحصون، وقام بأعمال التخريب والفساد، وقتل الرجال وسبي الذرية،[4] ولم يشر ابن عذارى إلى اسم الحصن الذي هدمه العبيديون، أو موقعه في الجبل.[5] كما نجد في نص ابن عذارى اسم لشخصية كانت على رأس المقاومة ألا وهي: شخصية أبا بطة !، وهذه الشخصية لم أقف في المصادر الإباضية، وعلى الأرجح يكون أبو يحيى زكرياء الارجاني هو المعني وكنيته أبو بطة، لأنه كان واليا على الجبل في ذلك الوقت، وهو أحق م يكون مدافعا عن الجبل، وهذا ما أشار إليه الشماخي قائلا: «أغارت كتامة على الجزيرة فخرج إليهم [أبو يحيى

1 -. علي يحيى معمر، الحلقة الثانية، المرجع السابق، ص 145؛ جاك تيري، المرجع السابق، ص 360؛ محمود شاكر، المرجع السابق ص 121. ولم أقف على أي مصدر حول ما ذكره الدكتور صالح مصطفى مفتاح: من أن إباضية ليبيا (وجبل نفوسة ضمنيا منهم) كانوا يتبعون الأغالبة من الناحية السياسية، فغي كتابه: ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ص 270

2 - ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص 187.

3 - إحسان عباس، المرجع السابق، ص 82.

4 - المصدر نفسه، ص 188؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، مج2، ص 407.

5 -أشار الدكتور إحسان عباس أن الحصن الذي تم هدمه بالجبل: (مدينة جادو)، ولا ادري ماذا يقصد بجادو، هل المقصود أن الحصن هو المدينة نفسها؟ وهذا لا يتأتي بداهية، أم انه يعني: الحصن يقع في مدينة جادو، وهذا ما لم أقف عليه في المصادر التاريخية.

الارجاني] فهزمهم الله، وخرج إليهم مرة أخرى قرب تيركت فهزمهم الله وفيها ضرب ومات».[1] يفهم من نص الشماخي أن المغيرين على الجبل قبيلة كتامة، وهم القبيلة التي قامت على أكتافها الفاطمية وكانوا جندها في بلاد المغرب.

ويبدو أن منطقة الجبل لم تتعرض كثيرا للضرر الناجم عن نزوح قبائل بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب الكبير، بالإضافة إلى بقائها بعيدة عن الصراعات بين المطالبين بالعرش الزيري خلال ق: (5هـ/11م)، إلا إنها تعرضت في النصف الثاني من ق: (6هـ/12م) لغارات من سمتهم المصادر التاريخية بالمغامرين الذين ادخلوا بلاد الغرب الإسلامي عامة في دوامة من الحروب والقلاقل منها على سبيل المثال غارات قراقوش الارمني[2]- وهو مولى لصلاح الدين الأيوبي_ المدعوم من بني دباب قبيلة من بني سليم فغاروا على جبل نفوسة واستولوا على مغانم ضخمة.[3] كما تعرضت في نفس الفترة لغارات بني غانية، بقيادة أبي يحيى بن غانية الميورقي الذي قام هو الآخر بأعمال التخريب والفساد في جبل نفوسة.[4]

ب). الأهمية الاقتصادية بجبل نفوسة:

تشير كتابات البلديات والجغرافيين إلى الأهمية الاقتصادية والسياسية لمنطقة الجبل، وتبرز معلومات هامة، فيتبين الموقع الاستراتيجي للجبل المشرق على إحدى الطرق الهامة التي تربط ما بين الشمال الإفريقي على سواحل البحر الأبيض المتوسط وبلاد أفريقيا فيما وراء الصحراء.

ولكي تتضح لنا حياة الجبل الاقتصادية وأهميتها نرجع مرة أخرى ونذكر بالبيئات الجغرافية الثلاث التي تحدثنا عنها سابقا، وهي: (الجفارة، والجبل، والظهر)، فمن خلال هذا المثلث الجغرافي كانت تدور حياة السكان، وتقوم عليه معيشتهم، ومن هنا يتضح تأثير العامل البيئي/الجغرافي في تشكيل وتكوين نمط الحياة بمختلف مناخيها، وسنركز هنا على الحياة الاقتصادية -بعد إسلام الأهالي بصورة موجزة_ من خلال عناصرها التالية:.

أولا: الزراعة والرعي:

اتجه سكان الجبل للزراعة بفعل توفر شروطها من تربة خصبة، ووفرة مياه (أمطار، عيون)، وهذا ما أشارت إليه المصادر التاريخية: فقد وصف المؤرخ اليعقوبي (ت 248

1 - الشماخي، المصدر السابق، ص 243.

2 - قراقوش: مولى لصلاح الدين الأيوبي واصله من أرمينيا.

3 - التيجاني ، المصدر السابق، ص 113.

4 - ابن خلدون، العبر، مج6، ص 231-232.

هـ) المنطقة قائلا: «ارض نفوسة...ومنازلهم في جبال طرابلس في ضياع، وقرى ومزارع وعمارات كثيرة»،[1] فالملاحظ هنا كثرة العمران البشري بالجبل وازدهار الاقتصاد. ويصف الرحالة ابن حوقل (ت 379 هـ/ 988م) جبل نفوسة بأنه: «جبل عال منيف يكون نحو ثلاثة أيام في اقل من ذلك، وفيه منيران لمدينتين تسمى إحداهما شروس في وسط الجبل، وفيها مياه جارية، وكروم وأعناب طيبة وتين غزير، وأكثر زروعهم الشعير وإياه يأكلون... وبالجبل مدينة ثانية تعرف بجادوا من ناحية نفزاوة»[2]

كما يشير الجغرافي البكري (ت 487هـ/1049م) إلى نفس المعني قائلا: «وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون الكثير والفواكه».[3] ومن خلال هذه الإشارات بالإضافة إلى المصادر الإباضية، وما تذكره في هذا الصدد نستطيع أن نكون فكرة ولو بسيطة عن الزراعة والرعي بالجبل، والتي أدركنا من خلالها إشتهار الجبل بغراسة أنواع مختلفة من المغروسات مثل: الكروم والأعناب، والتين، والزيتون، وأشجار النخيل بمختلف أنواعها: الكركابي، والمغراسي، وتقننايت، والشبهاني، ويخزن إنتاجه من العام للعام في قلل كبيرة، وأشجار الفواكه المتنوعة، بالإضافة إلى زراعة الحبوب وأهمها: (القمح والشعير).

ولما توفرت البيئة الجغرافية على مراعي شاسعة سواء في الجفارة أو منطقة الظهر، وحتى في الوديان بين الجبال، والتي تنبت بها النباتات الطبيعية بكثرة، اهتم السكان بتربية الماشية من : أبقار وماعز وأغنام بالإضافة إلى تربية الإبل، ويشير البغطوري إلى أبو عثمان المزاتي -وهو من سكان قرية دجي- الذي كان يمتلك ثروة كبيرة من الأغنام ومن كرمه انه يذبح لضيوفه أشكال متنوعة من أجناس الغنم[4]. وسكان الجبل كما اشرنا سابقا قسموا فصول السنة إلى شهور يقيمون فيها ببيوتهم، وأخرى يرحلون فيها إلى الجفارة وهي أيام الربيع خصوصا. كما نود الإشارة إلى أن اغلب سكان الجبل اهتموا بتربية الأبقار، ونشير إلى الشيخ أبو ساكن عامر الشماخي الذي أرسله والده في صغره ليرعى بقرتهم وجاز عليه احد المارين فوجده ماسك بجبل البقرة، فقل له لما لا تتركها كبقية الأولاد، فرد عليه عامر الصغير وقتذاك: «خشية أن تغشى زرع الناس».[5]

وتتعدد الأغراض من تربية الحيوانات فمن الغرض الغذائي والاستفادة من لحومها

1 - احمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988، ص 103-104.

2 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 94-59.

3- البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، (د.ت)، ص 9.

4 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 121.

5 - الشماخي، المصدر السابق، ص 561.

وألبانها، إلى استخدام البعض منها كمركوب للسفر والتنقل إلى الأماكن البعيدة، ولنقل بضائعهم التجارية، كما اشتغلوا بتجارة الحيوانات نفسها.

ونتيجة لتوفر تلك الغلال والمنتوجات الزراعية والحيوانية في الجبل، قام الأهالي ببناء ما يعرف (بالقصور)،[1] لتخزين ما أنتجته المزارع والحقول من: (زيوت، وتمور، وقمح وشعير)[2] وغيرها من الغلال، وكذلك إنتاجهم الحيواني، بالإضافة إلى استعمال تلك المنتوجات في أنواع مختلفة من الصناعة.

ثانيا: الصناعة:

كان لصناعات أهالي الجبل علاقة بما يحتاجونه في حياتهم اليومية، بالدرجة الأولى من (مسكن، وملبس، ومأكل)، بالإضافة إلى صناعات أخرى غالبا ما تكون ثانوية أو يقتنيها البعض فقط. فمن دواعي الاستقرار في أي مكان هو توفير السكن، ومن هنا اهتم الناس ببناء مساكنهم، الأمر الذي يقتضي صناعة بعض المتطلبات، وهو ما قام به الأهالي مثل: صناعة الجبس، وتحضير الطين والتراب، إلى تصنيع الأبواب من أغصان الأشجار وصنور النخيل. ومن أشهر المهندسين في بناء المنازل الفقهية والشيخ المهندس فرج بن نصر المعروف بنفاث، وفي هذا الصدد يقول أبو زكريا الوارجلاني: «وكان نفاث بناء عظيما، فأراد نفاث معاونة سعد في البنيان وصار بيني له».[3] ويبدو بالفعل أن نفاث كان ماهرا في الهندسة والبناء لان البناء هنا بخص احد ولاة الجبل وهو سعد بن وسيم الطمزيني، وبالتالي من الطبيعي أن يكون بيته راقيا، ويحتاج إلى مهندس بارع.

ولما كانت الحاجة ملحة للباس، فمن ضمن ما استخدمه أهالي الجبل في صناعة لباسهم وأغطيتهم الصوف الذي يقيهم برد الشتاء القارس. ويبدو أن هناك عمل جماعي بين النسوة في عملية تحضير الصوف وغزله، فقد أشار البغطوري لذلك في حديثه عن شخصية وهيلي من قرية تندميرة الذي استعانت زوجته بمجموعة من النساء لغزل الصوف.[4] ولأهمية صناعة وغزل الصوف في بيئة الجبل رخص الشيخ أبو

1 - شاهدت خلال زياراتي المتكررة إلى الجبل عدة قصور، بعضها ما زال بحالة جيدة، وبعضها الآخر في حالات سيئة، وأخرى قد تحولت إلى أكوام من الحجارة، وللقصور استخدمات عسكرية إلى جانب وظيفتها الأولى كمخازن للغلال والتموين. ينظر الصورة رقم (3).

2 - سعيد علي حامد، قصور تاريخية منافعها شتى، مجلة تراث الشعب، العدد 2، السنة 1991، ص : لمياء سالم شرف الدين، بعض ملامح أزمة افريقية الاقتصادية، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1999، ص 18.

3 - أبو زكريا الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 33.

4 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 69.

حسان الفرسطائي للعجائز والنساء اللاتي يحضرن مجلسه العلمي بان يشتغلن في الصوف.[1] ومن ناحية أخرى تشجيعا لهن لحضر تلك المجالس.

ومن ضرورات الحياة، ودوام نشاط وحيوية الإنسان الاهتمام بغذائه، والغذاء على أنواع منه الطبيعي، والآخر الذي يصنعه الإنسان، وعلى رأس المنتجات الغذائية التي قام بصناعتها سكان الجبل هي عصر الزيتون ليصير زيتا وهو من أهم عناصر الغذاء، وهذه الصناعة تعد من أقدم الصناعات في الجبل، وهي منتشرة بشكل كبير، لدرجة أن كل عائلة تمتلك معصرة[2] خاصة بها. كما استغلوا بعض أنواع الصخور المحلية في صناعة (الرحي) لطحن الحبوب وأهمها الشعير لصناعة الخبز. وكان لجبل نفوسة شهرة في ذلك حتى قال ابن حوقل: « وأكثر زروعهم الشعير وإياه يأكلون، وإذا خبز كان أطيب طعاما من خبز الحنطة، ولشعيرهم لذة ليس لخبز من أخباز الأرض لأنه ينفرد بلذة».[3] ويبدو أن أهالي الجبل لهم دراية بصناعة وإعداد الحلويات، التي ربما كانوا يهتمون بإعدادها وتقديمها في الأعياد والمناسبات، ونفهم ذلك من نص أورده البغطوري في سيره قائلا: « فلما أصبحت من الغد [أول أيام عيد الفطر] قدمت العجوز...لعيالها طبقا من الحلاوة».[4] كما عرفوا صناعة العسل ويقول المؤرخ البغطوري في ذلك:»وقد كان أعطى قبل ذلك لأبي مرداس بطة عسل».[5] ومن الصناعات الغذائية التي اهتم بها كثيرا سكان الجبل هي تحضير (البسيسة).[6]

وبالإضافة لذلك وعلى مزروعاتهم وثروتهم الحيوانية، قاموا بأنشطة صناعية مختلفة: فاستغلوا أشجار النخيل وصنعوا من سعفها المراوح والقفاف وأوعية الحمل

1 - المصدر نفسه، رقة 48.

2 -وذلك لكثرة أشجار الزيتون بجبل نفوسة.

3 -ابن حوقل، المصدر السابق، ص 92.

4 -البغطوري، المصدر السابق، ورقة 34..

5 - المصدر نفسه، ورقة 45. وللاف لم اعثر على معلومات تفصيلية عن طريق تربيتهم للنحل وغيرها من المعلومات التي تخص هذا الموضوع، ولربما قال قائل: أن العسل المذكور في نص (البغطوري) كان مستوردا من خارج الجبل، وهذا احتمال قائم، إلا أن ظروف وشروط تربية النحل ومن ثم صناعة العسل متوفرة في بيئة جبل نفوسة، وبذلك لا استبعد معرفتهم لهذه الصناعة.

6 - الشماخي، المصدر السابق، ص ما زال إلى يومنا الحاضر يهتم أهالي الجبل بتحضير (البسيسة)، وهي تتكون من عدو بقوليات منها: القمح والشعير، والحمص، والفول المجروش، والعدس، والكمون الحلو، والسمسم، واليانسون، والحلبة، واللوز والبندق، والكركم، كما يضاف إليها بعض الأعشاب مثل: الإكليل والزعتر، وطريقة تحضيرها هي لعدما تحمس كل تلك البقوليات على النار، يقومون بطحنها وتصير مسحوقا مثل الدقيق، ثم يخلطونها مع بعضها البعض بإضافة زيت الزيتون، والتمر أو التين المجفف، وتقدم عادة مع فطور الصباح، كما يجهزونها في الأفراح والمناسبات. ونلاحظ مدى فائدتها الصحية من خلال مكوناتها الغذائية.

والحفظ، وادخلوا جذوع النخل في سقف المباني من مساجد ومنازل، وغيرها واتخذوها جسورا للعبور في أماكن أخرى. ومن الصناعات الواسعة الانتشار صناعة الفخار لتجهيز الأواني والقدور، والأوعية لحفظ أنواع معينة من الطعام والتموين كالتمور والتين. ومن أغصان الزيتون الصلبة صنعوا المحاريث، وادخلوا حطبه في صناعة الفحم. كما عرفوا دبغ الجلود، واستغلوه في صناعة الكتب.

ونتيجة لذلك الإنتاج الزراعي وتوفر الثروة الحيوانية، وما أنتجه عقل ويد ساكن الجبل، قام تجارهم بتبادل تلك السلع والمتوجات مع المناطق الأخرى.

ثالثا: لتجارة:

يقع الجبل في منطقة جغرافية ميزة، جعلته يتوسط المراكز الحضارية الساحلية على البحر المتوسط وبين المراكز الحضارية فيما وراء الصحراء الكبرى وما يقع بينهما من مدن وقرى وواحات هامة، فمن تلك البلدان والأقاليم المجاورة له شرقا برقة ومصر، ومدن بلاد الغرب الإسلامي غربا مثل: جزيرة جربة والقيروان، وتاهرت، وسجلماسة غربا، والى شماله تقريبا مدينة طرابلس وصبراته وفي جنوبه مدينة غدامس، وزويلة، وفزان، بالإضافة إلى بلاد السودان الغربي والأوسط. والأمر الذي مكن سكان الجبل الاشتغال بالتجارة مع تلك البلدان والحواضر، بالإضافة إلى التبادل الفكري، كما توضح أشارات الجغرافيين معلومات تفيد ما توفرت عليه منطقة الجبل من مقومات اقتصادية اعتمد عليها أهالي المنطقة في التجارة الداخلية والخارجية.

فتاجروا بكل ما ينتجونه مع المناطق القريبة، ومنها درج[1] التي تاجروا معها بزيت الزيتون وكانوا يخرجون إليها في القوافل ويبيعون ما لديهم من الزيت ويربحون من جراء ذلك الربح الكثير.[2] أما تجارتهم مع المناطق البعيدة فهم في الغالب وسطاء ما بين مناطق الشمال الإفريقي، وبضائع ما وراء البحر وبين مناطق ما وراء الصحراء (السودان الغربي والأوسط)، وهذا ما سيتضح بصورة أكثر تفصيلا في الفصل الرابع من هذا البحث، إلا أن أهم الواردات من تلك المناطق: الرقيق والذهب.

وتبرز من خلال النصوص السابقة أهمية بعض المدن مثل: شروس وجادو حيث كانتا تشكلان مركزين حضاريين بالنسبة للجبل، ولا يعني هذا عدم وجود مدن أخرى بالجبل بل برزت مدن وقرى وأسهمت بادوار اقتصادية وثقافية في الجبل خلال العصور الوسطى

1 - درج: مدينة ليبية تقع جنوب جبل نفوسة وشمال مدينة غدامس.

2 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 60..

منها على سبيل المثال لا الحصر: مدينة نالوت، ومدينة كباو، ومدينة يفرن، وطمزين، وقرية ايجناون وويغو، وتندميرة، وغيرهما من المدن والقرى التي ذكرتها بالتفصيل أنفا، والتي احتوت على تجمعات سكانية هائلة أقبلت على الدين الجديد عقيدة ومنهاجا، وعنيت بتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، ومن هناك صار التوجه نحو العلم والتعليم فأخذت الحياة العلمية في جبل نفوسة بالنشؤ والتطور.



الفصل الثاني

(الحياة العلمية في جبل نفوسة)

1.المؤسسات التعليمية وطرق التدريس.

(المساجد-المدارس-المكتبات).

2.التعليم في البيوت والتعليم المتنقل.

3.الحلقات والمجالس العلمية.

4.المراحل التعليمية ومناهجها الدراسية.

5.الرحلات العلمية (الدراسة خارج الجبل).

6.الرحلات العلمية للجبل (طلاب وافدون للجبل).

7.الإجازات العلمية.

1. المؤسسات التعليمية وطرق التدريس:

حينما استقرت الأوضاع السياسية والعسكرية ببلاد المغرب الكبير عامة، وجبل نفوس خاصة بعد الفتح الإسلامي ق: (1هـ/7م)، ودخول الأهالي الدين الإسلامي شهدت المنطقة تغييرات شاملة لمختلف نواحي الحياة فيها، لاسيما التغيرات التي شهدتها الحياة الفكرية،[1] بحيث توجه اهتمام الأهالي للعلوم والفنون، وخاصة الدراسات العربية الإسلامية،[2] وكان لهم دور كبير في هذه المجالات، ولم يقل مجهودهم العلمي عن مجهودات باقي المراكز الحضارية في العالم الإسلامي، محاولين تفهم الدين الجديد بصورة واضحة، بحيث أثارتهم تعاليم الإسلام في حب العلم والتعلم، فقد تعددت الآيات القرآنية الدالة على تلك المعاني، ومنها على سبيل المثال: قوله عز وجل: في أول سورة نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: «اقرأ باسم ربك الذي خلق».[3] وقال سبحانه وتعالى: «يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير».[4] وقوله عز وجل: «ورب زدني علما».[5] وقال جل ذكره: «إنما يخشى الله من عباده العلماء».[6]

كما أوردت السنة النبوية الشريفة، عدة أحاديث في هذا الصدد منها قول صلى الله عليه وسلم: «أني بعثت معلما ولم ابعث تاجرا، فتعلموا العلم لوجه الله وعلموا الناس لوجه الله تكونوا ورثة أنبياء الله»،[7] وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «من يرد به الله خيرا يفهمه وإنما العلم بالتعلم».[8] وقوله صلى الله عليه وسلم: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه))[9]، ولكي يرسخ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حب العلم لدى المسلمين، والسعي لتعليمه للآخرين قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب

---

1 - في الحقيقة لم أتطرق في هذه الدراية إلى الحياة العلمية والفكرية عند سكان جبل نفوسة، وبلاد المغرب عموما في الفترة قبل الإسلام الأمر الذي يوضح الكثير من المسائل في هذه المواضيع الفكرية، وربما دراسات لاحقة يتسنى لنا ذلك إن شاء الله تعالى.

2 - احمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا، طرابلس: منشورات الجامعة الليبية، 1971، ص 129.

3 - سورة : العلق، الآية 1.

4 - سورة، المجادلة، الآية: 11.

5 - سورة ، طه، الآية: 114.

6 - سورة: فاطر، الآية 28.

7 - حديث شريف.

8 - أبو عبد الله محمد البخاري، صحيح البخاري، ج1، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت)، ص 27.

9 - أبي عيسى محمد الترمذي، الجامع الكبير، ج5، ط2، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 30.

الكثير، وكانت منها اجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به».[1]

كما يرجع الفضل إلى جهود العرب المشارقة في تشكيل النواة الأولى للحياة العلمية والثقافية ببلاد الغرب الإسلامي عامة فقد دخل إلى افريقية عدد كبير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نذكر منهم على سبيل المثال: عبد الله بن عمر ابن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وحمزة ين عمرو الاسلمي، وسلمة بن الاكوع، وبلال بن الحارث المزني، وكعب ابن عمرو، وعبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق.[2] كما لحق بهم في فترات لاحقة عدد آخر من التابعين.[3] إلا أن المصادر التاريخية لم توضح بالتفصيل ما قاموا به من مجهودات علمية، ولكن لاشك في أن مثل هؤلاء الرجال لابد أن يتركوا أثرا علميا بين أهالي افريقية، كما ينبغي الإشارة إلى جهود البعثة العلمية والمتكونة من عشرة أشخاص وهم: (موهب بن حي المعافري، وحبان بن أبي جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور القرشي، وإسماعيل بن عبيد، وطلق بن حابان، وبكر بن سوادة الجدامي، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي، وأبو عبد الرحمن الحبلي، وسعيد بن مسعود التجيبي)، أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى افريقية (100-101هـ)،[4] لترسيخ الدين الإسلامي، ونشر العلوم الدينية واللغوية بين الأمازيغ.

ولا ندري ما هو نصيب جبل نفوسة من تلك الجهود الدعوية والعلمية وما هي الأسماء والشخصيات التي استقرت هناك لإرشاد الأهالي وتعليمهم، إلا أن الوسائل كانت -فيما بعد- متنوعة ومتعددة إمام طلاب العلم، فمنهم من شد الرحال خارج الجبل لطلب العلم في الحواضر الإسلامية المختلفة شرقا وغربا، ومن أقعدته ظروفه المعيشية والمادية كان يكفيه العلماء المستقرون بالجبل في مختلف القرى والمدن الذين يقومون بالتدريس في المساجد والكتاتيب وفي فترات لاحقة أسست المدارس وانتشرت على طول الجبل

1 - أبو عبد الله البخاري، المصدر السابق،، ج1، ص 30.

2 - أبو العرب محمد القيروان، طبقات علماء افريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1968، ص 73-78.

3 - الصدر نفسه، ص 79-83.

4 - أبو بكر عبد الله المالكي، رياض النفوس، ج1، ط2 ، تحقيق: يشير البكوش، مراجعة، محمد العروسي المطوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994، ص.

للقيام بمهام التعليم، كما تعد الحلقات العلمية من وسائط التعلم والتعليم، حيث كان لبعض المشائخ حلقاتهم العلمية والتي تعقد في مختلف الأماكن في المساجد أو منازل العلماء أو حتى في الساحات، كما لاحظت بعض الحلقات يتجول بها شيخها بصحبة طلابه في مختلف مدن وقرى الجبل، بالإضافة إلى المجالس العلمية فهي الأخرى فرصة من الفرص المتاحة لطلاب العلم والمعرفة.

وإمام كل هذا المناخ العلمي الذي يشجع الطلاب على الحوار والمناقشة والسؤال، وقول أرائهم دون تردد، ويروي البغطوري محاورة بين الطالب أبي الربيع بن أبي هارون الملوشائي وشيخه أبي زكريا يحيى بن أبي سفيان، الذي اخذ بفتي بالرخص في إحدى مجالسه العلمية، الأمر الذي لم يروق لأبي الربيع فقام من المجلس بعد أن أعطاه شيخه الإذن بالقيام، ثم طلب الشيخ من الطلاب أن يردوه لتميزه وقوة فهمه، إلا انه ما لبث أن رجع لوحده.[1] كما يشجع العلماء طلابهم على طرح الأسئلة ويقولون في ذلك: «السؤال نصف العلم، وقيل العلم كله، معنى ذلك أن السؤال سبب العلم ومفتاحه».[2] ويبدو أن بعض العلماء والمشائخ بالجبل قسموا شهور السنة كما يشير لذلك المؤرخ البغطوري قائلا: «إن الماضين يحرثون شهرين، ويحصدون شهرين، ويتفرغون لطاعة الله ثمانية أشهر، وقالوا أيضا: لولا تلك الأربعة ما تصح هذه الثمانية، فصار ذلك كله عباده».[3] ونفهم من هذا النص أن التفرغ لطاعة الله تعني العبادة وطلب العلم في نفس الوقت، وهذا التقسيم من شأنه ينظم حياتهم العلمية والعملية، وهو كذلك من تقديرهم لأهمية الوقت الذي لم يضيعوه هذرا حتى في وقت أسفارهم وترحالهم كانوا يتناقشون في المسائل الدينية والعلمية، ويشير البغطوري إلى جماعة من جبل نفوسة كانوا مسافرين وفي طريقهم كانوا يتذاكرون مسائل التوحيد والفقه.[4] والاهم من كل هذا وذاك أنهم وظفوا كل علمهم وثقافتهم في إصلاح المجتمع، والوصول به إلى بر الأمان، مهما كلفهم الأمر ولا يخشون في ذلك لومة لائم، وكان بعضهم: «يتتبع الأمراء ويشدد عليهم في أمور الإسلام».[5] وفي نفس الوقت كان هماك العديد من الأمراء يستمعون إلى أراء العلماء، ويتقبلون نقدهم ومنهم: «أبو زكريا بن أبي عبد الله حين تولي الأمور، فقال له أبو محمد الدرفي: إذا نزلت عليك مسألة فعليك بابي يحيى الفرسطائي، وأبي

1 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 17، ورقة 10.

2 - أبو العباس احمد الفرسطائي، الألواح، مخطوط، ورقة 46.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 6.

4 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 33.

5 - المصدر نفسه، 41.

محمد الكباوي. فكل ما اتفقا عليه فاحكم به وما اختلفا فيه فاتركه. فكان يمشي إليهما.»[1]

ولم يكن طلب العلم مقصورا على الرجال فحسب بل أسهمت النساء أيضا بنصيب وافر في إنعاش الحياة العلمية. وبلغت مراتب عالية إلى درجة الاجتهاد. وتزخر المصادر التاريخية بالعديد من الشواهد الدالة على نشاط النساء العلمي والثقافي ومنها: تلاقي إمرأتين بشكل دائم واحدة من (توغرت)، والأخرى من (إكراين)[2] في إحدى المصليات ونثار بينهما المسائل والقضايا العلمية ويتذاكرونها ثم ترجع كل منهما إلى منزلها.[3] يبدو أن الرجال في مجتمع جبل نفوسة أدركوا قيمة المرأة وأهميتها فكانت محل استشاراتهم في مختلف الأحوال والمسائل. وهذا الشيخ أبو هارون الملوشائي كان دائم الزيارة لعجوز في قرية إيبناين. وعلى ما يبدو انه كان يستشيرها في قضايا علمية وفقهية.[4]

كما يذكر أبو العباس الفرسطائي رواية تشير المعني السابق. وهب أن: «عجوز بجبل نفوسة أتى إليها العزابة ليزورها فقالوا: أوصنا يا عجوز. فقالت: وكيف أوصيكم وانتم الرجال. منكم الرسل والأنبياء. ومنكم الأمراء والوزراء. ومنكم المؤذنون والأئمة. قالوا: ولابد فان الذكرى تنفع المؤمنين. فقالت: إياكم وكثرة الكلام لئلا تكذبوا. وإياكم وكثرة الإيمان لئلا تحنثوا. وإياكم وكثرة الدلالة لئلا تسرفوا. وإياكم والتهمة لئلا تظلموا. قالوا: زيدينا. قالت: زيادتكم طلب حوائجكم. ومصافحتكم مقارعة وأكلكم أكل النهما ومشيكم مشي المرضى. ونومكم نوم الموتى.... ثم ذكرت كلاما بالبربرية يرجع معناه إلى قول بعض الحكماء: نق العمل فان النافد بصير. جدد السفينة فان البحر عميق. كثر الزاد فان السفر بعيد. خفف الحمل فان العقبة كؤود».[5]

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حتى الإماء والخدم كانت لهم اهتمامات بالعلم والمذاكرة خلال فترات زمنية لاحقة.[6] وكان بعض المشائخ يعطي وقته لتعليم بعض

1 - المصدر نفسه، ورقة 65.

2 - إكراين: هو في الواقع اليوم وادي ينحدر من جبل كباو ويتجه ناحية الشمال صوب الجفارة وبه عدة قرى قديمة قمت بزيارتها عام 2004 وهي: ايمزبولن، تصرارت ، وآت بارون، ولاحظت وجود أثار لأبنية مطمورة تحت الأرض تحتاج إلى دارسات أثرية وتاريخية.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 19.

4 - المصدر نفسه، ورقة 20.

5 - أبو العباس الفرسطائي، المصدر السابق، ورقة 99-100.

6 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 13.

الخدم ويروى أن أبو محمد التغرميني: «لقي يوما امة فقال: ما أحسن هذه الأمة لو إنها تعرف توحيدها. فقالت الأمة: علمني يا شيخ. فوقف يعلمها توحيدها»[1] وليس فحسب بل سمح العلماء لأبناء الأقليات الدينية الأخرى من الدخول في مدارس المسلمين حيث يفيدنا أبو عمران الشماخي في هذا المعنى بقوله: «وانه لا باس بترك اليهودي يدخل أولاده عند معلم أهل القبلة ليتعلموا الخط».[2]

وهذا يدل على رقي الحضارة الإسلامية التي تتعايش فيها كافة الأقليات الدينية والعرقية وغيرها. وهذا الاهتمام بطلب العلم لم يأت من فراغ وإنما جاء نتيجة أن المنطقة كان يسودها الاستقرار السياسي والاقتصادي من ناحية. ومن ناحية أخرى كانت على قدر من العمران البشري كما يشير ابن خلدون: «في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة».[3] وتأسست مجموعة من المساجد والمدارس في منطقة الجبل فكان لها إسهام بارز في أحضان طلبة العلم على فترات متتالية

أولا) المساجد:[4]

اهتم أهالي الجبل ببناء وتشييد المساجد. في مختلف مدنهم وقراهم. وذلك لما يمثله المسجد من أهمية دينية للمجتمع الإسلامي. فهو المكان المخصص للعبادة من صلاة وذكر لله ودعاء. بالإضافة لذلك اتخذت أماكن للتعليم والتدريس فالمسجد يعد المكان الأول لذلك الغرض وتكاد لا تخلو مدينة أو قرية في الجبل من وجود مسجد أو أكثر. واغلبها تم تأسيسه في وقت مبكر بعد الفتح الإسلامي لجبل نفوسة. وكن علماء الجبل يرون أن المساجد حقوقا على الناس وهي: «الصلاة فيه والآذان. واخذ المعلم».[5]

وبنهاية كتاب السير للشماخي (ت 929هـ/15522م)، ملحق بعنوان «تسمية مشاهد الجبل»،[6] ورد فيه أسماء للاماكن الدينية في جبل نفوسة. وقد أحصى الباحث المساجد

1 - البغطوري، المصدر السابق ، ورقة 169.

2 - أبو عمران موسى بن عامر الشماخي، لقط أبو عمران، طبعة حجرية، ص 119.

3 - ابن خلدون، المقدمة ، ص 402.

4 - تنتشر المساجد الأثرية على طول الجبل في مختلف القرى والمدن، واتخذت اغلبها أماكن للدراسة والتعلم في القرون الوسطى، حيث تخرج منها فحول العلماء الذين اثروا الحياة الفكرية في جبل نفوسة، وتلك المساجد في حاجة ماسة إلى الصيانة والترميم من قبل مصلحة الآثار، وحمايتها من الاندثار والضياع، كما هي في حاجة إلى الدراسات الأثرية والتاريخية، لأنها تمثل ثروة وطنية في غاية الأهمية. وقد زرت اغلب المساجد القديمة في الجبل ووقفت عليها وهي تفوق الستين مسجدا اثريا. انظر الملحق ص 290.

5 - أبو عمران موسى بن عامر، المصدر السابق، ص 42، هكذا وجدتها في ا لأصل: «واخذ المعلم» ولعل صوابها: (اخذ العلم).

6 - الشماخي، المصدر السابق، ص 598-600.

المذكورة فوجدها اثنين وعشرين مسجدا، إلا إنها في الواقع تفوق هذا العدد بكثير فالمسجد التي زرتها أكثر من ستين مسجدا اثريا.[1]

نلاحظ أن المساجد اتخذت مجالس للعلم والدراسة، وكانت النساء تحضر تلك المجالس العلمية في أماكن خاصة بهن في المسجد يفصلهن عن الرجال ستار[2] وهذا يدل على انتشار العلم في المنطقة، واهتمام كافة الشرائح الاجتماعية بطلب العلم. وينبغي الإشارة إلى أن أول مسجد أذن فيه المؤذن بجبل نفوسة كان في موضع يسمى اجلمم[3] بقرية ويغو.[4]

كانت هناك العديد من المساجد التي أدت دورا كبيرا في الحياة العلمية في الجبل وارتادها الطلاب، ويمكن أن نتساءل عن ابرز تلك المساجد؟ وكيف كانت طرف التدريس والتعليم المتبعة فيها؟ والى أي حد نجحت في ذلك؟ ولعل من أبرزها:

1) مسجد أبي خليل صال الدركلي ق: (2هـ/8م).

عاش أبي خليل صال الدركلي خلال ق: (2هـ/8م)، وينتسب إلى قرية دركل[5]، وبعدما أنهى أبو خليل تعليمه على مشائخه قام بتأسيس مسجد بقريته، قصده العديد من طلاب العلم الذين تعلموا على يديه، ومن تلاميذه الذين التحقوا بهذا المسجد: أبان بن وسيم الويغوي، وأبو صالح الدركلي.

وهو عبارة عن بناء تحت الأرض (غار) أسفل ربوة دركل،[6] طوله من الغرب إلى الشرق حوالي 10 أمتار، وعرضه حوالي 6.5 متر، وبابه يفتح جهة الجنوب الغربي، وهناك باب

1 - انظر: الملاحق ص: 290 أسماء لبعض مساجد جبل نفوسة التي زرتها خلال الرحلات العلمية.

2 - الشماخي، المصدر السابق، ص 636، لاحظت هذا الستار الفاصل في اغلب مساجد مدن وقرى الجبل، وهو في الغالب مبني بالحجارة وطوله من المتر ونصف إلى المترين تقريبا.

3 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 13.

4 - ويغو: تقع فيما بين قرية بقالة بالحرابة شرقا ووادي شروس غربا وقرية مرقس بالحرابة شمالا ومنطقة الظاهر جنوبا، ويبدو أن ويغو كانت تشغل مساحة كبيرة وهذا يتضح من خلال أثار البناء الذي ما زال قائما ويحتاج إلى صيانة وترميم من قبل مصلحة الآثار، كما هي في حاجة لدراسات تاريخية وأثرية. قمت بزيارتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (4).

5 - دركل: قرية من قرى الجبل القديمة، تقع فوق ربوة عالية وكبيرة وآثار مساكنها متناثرة حول الربوة وفي أعلاها يوجد القصر، ويحدها من الشرق والغرب وادي أم صفار ومن الشمال امتداد مجرى وادي شروس، ومن الجنوب وادي يفصل دركل عن جبل قرية الجزيرة، زرتها عام 2004، ينظر الصورة (5).

6 -. بنيت نسبة هذا المسجد للشيخ أبي خليل الدركلي على اعتبار قدم المسجد الذي يعود إلى فترة كانت المساجد عبارة عن غيران تحت الأرض بعد أن يتم تسويتها من الداخل وإقامة الأقواس فيها وبناء المحراب وغيره، وهو الأمر الذي يتوافق وكيفية بناء المساجد في زمن الشيخ أبو خليل ق: (2هـ/8م). زرت هذا المسجد عام 2004، ينظر الصورة رقم (6).

آخر في نفس الاتجاه غير انه مسدود، والمسجد متسع وينقسم إلى بيتين، وتوجد به ثلاث أعمدة كبيرة وقوسان، وتوجد على سقفه في البيت الثاني كتابه وهي: (بسم الله الرحمن الرحيم [....][1] على محمد عمل له هدية المسجد في سنة خمس مائة وخمس وثلاثين [....][2] الله من عمل يوم الثلاثاء). ونستخلص من هذا التاريخ انه يرجع إلى النصف الأول من ق: (6هـ/12م)، وهو ربما يكون تاريخ صيانة وترميم وبذلك يكون تاريخ البناء أقدم. وعلى ظهر المسجد توجد بقايا آثار وهي أساسات لبناء ربما تكون مدرسة تعليمية أو مسكن احد المشائخ.

2) مسجد لبي عبيدة عبد الحميد الجناوني:[3]

يعد أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني -وينتسب إلى قرية ايجناون- من علماء ق: (3هـ/9م)، وكان مسجده متسعا حتى ورد انه: «اجتمع به سبعون عالما من كبار علماء اجناون في وقت واحد».[4]

وهذا النص يفيد الأهمية العلمية للمسجد، بالإضافة إلى ظهور هذا العدد الكبير من العلماء في قرية واحدة الأمر الذي يفسر ما أورده الشماخي بان هذه القرية لا تحتاج الدار فيها إلى فتوى جار أخرى،[5] وكأنه يقول: إن لكل عائلة عالمة قادرا على الإفتاء في المسائل العلمية والدينية. ونفهم من هذا النص أيضا أن تواجد هذا العدد الكبير من العلماء يدل دلالة واضحة على ازدهار الحركة العلمية في الجبل، والمصادر لا تعطينا معلومات كافية عن كيفية التدريس بهذا المسجد، ومن هم العلماء الذين درسوا به !

3) مسجد سعد بن أبي يونس الطمزيني[6]:

أسسه الشيخ سعد بن أبي يونس في مدينة طمزين[7] خلال ق: (3هـ/9م)، وذلك بعدما

1 -كلمة غير واضحة.

2 -كلمة غير واضحة، ربما تكون (هجرية) حسب السياق اللغوي للعبارة.

3 - يعد هذا المسجد من أقدم مساجد الجبل وللأسف تم هدمه وبنى على أنقاضه مسجد جديد من قبل الأهالي عام 1971 ف، ولم يبق من المسجد القديم سوى جدار ما زال تحت البناء الجديد في قرية اجناون على بعد 5 كلم من مدينة جادو،= =ومساحة المسجد القديم حوالي 80 متر مربع على حسب ما رواه لي احد مواطني القرية، وكان يقال له مسجد جامع، زرته سنة 2004، ينظر الصورة رقم (7).

4 - الشماخي، المصدر السابق، ص 545.

5 - نفس المصدر والصفحة.

6 - مسجد الشيخ أبي عثمان سعد بن أبي يونس: زرته عام 2004، ينظر الصورة رقم (8).

7 - طمزين: مدينة من مدن جبل نفوسة، ويقع على حافة جبل عرف باسمها، وتأسست في أواخر القرن الثامن الهجري تقريبا، وذلك لوجود تاريخ مكتوب (775هـ) على صخرة بجانب قصر طمزين، وقبل تأسيسها كان الأهالي يسكنون الجنوب منها في ما يعرف (تحارت) وما زالت بقايا أثارهم دالة على ذلك مثل: بقايا القصر، ومسجد صغير يعرف بمسجد تحارت= =وهو بناء قديم تحت الأرض (غار)، كما تتناثر مجموعة غيران في المنطقة

أنهى تعليمه على يد الإمام عبد الوهاب الرستمي بتاهرت، وتوجه طلاب العلم إلى هذا المسجد الذي امتد نشاطه التعليمي إلى نهاية ق(8هـ/12م).[1] ويقع هذا المسجد في منطقة أبي خروبة بطمزين وهو متسع إلى حد ما، فطوله حوالي 9 أمتار وعرضه 8 أمتار ونصف، بابه من الناحية الشرقية، وفوق سطحه مئذنة صغيرة، ما زال بحالة جيدة لاهتمام الأهالي بصيانته.

4) مسجد أبي معروف[2]:

يعد هذا المسجد من أقدم المساجد بجبل نفوسة ويرجع بناؤه إلى القرن (3هـ/9م)، وهو يقع في مدينة شروس حاضرة الجبل وقتذاك، واسهم بشكل كبير في تجذير الحياة العلمية وخاصة الدراسات الإسلامية واللغوية، ومن العلماء الذين درسوا به الشيخ أبو معروف ويدران بن جواد (كان حيا بعد سنة 283هـ/896م)، وما زال المسجد يحمل اسمه إلى اليوم والعلماء الذين تعلموا وتخرجوا من هذا المسجد كثر، من أبرزهم على سبيل المثال: الشيخ أبو مسور يسجا اليراسني، الذي قدم من خارج الجبل، (ت 350هـ/96م).[3]

ونلاحظ تضارب المصادر التاريخية حول وجود الجوامع في مدينة شروس من عدمها ففي حين يصف ابن حوقل ق(14هـ/10م) مدينة شروس، بأنها: «يوجد بها منبر وأنها تقع وسط جبل نفوسة»،[4] نجد البكري ق:(5هـ/11م) يقول: عن مدينة شروس: «ليس بها جامع ولا ما في حولها من القرى وهي أزيد من ثلاثمائة قرية أهلة»[5]. ويتضح وجود الجوامع من خلال السبق الزمني لابن حوقل عن البكري، كما إنني لا استبعد وجود الجوامع في مدينة شروس أو غيرها من مدن وقرى جبل نفوسة في ذلك الوقت المتأخر عن زمن البكري، والإسلام دخل إلى الجبل منذ أكثر من أربعة قرون فكيف يستقيم عدم وجود الجوامع إلى ذلك الزمان. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هناك قائمة مساجد مذكورة في ملحق سير الشماخي،[6] وهي تقريبا اثنان وعشرون مسجدا. كما نجد كل من صاحب

كانت تتخذ مساكن، زرتها في عام 2004، ينظر الصورة رقم (9).

1 - الهادي الدالي، مملكة مالي الإسلامية، ط2، الزاوية: مطابع الوحدة العربية، 1999، ص 168.

2 - زرت هذا المعلم التاريخي سنة 2004 ف، ينظر الصورة رقم (10).

3 - الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص 157.

4 -ابن حوقل، المصدر السابق، ص 92.

5 - البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 656.

6 - قد يتبادر للذهن لأول وهلة أن عصر مؤلف :(الملحق بسير الشماخي) وهو : أبو زكريا إبراهيم الباروني متأخر عن البكري، هذا صحيح من الناحية الزمنية ، ولكن المساجد المذكورة بالملحق ترجع أسماء مؤسسيها إلى فترات سابقة لعصر البكري.

الاستبصار[1]،(ق: (6هـ/12م)، ياقوت الحموي[2] ق: (7هـ/13م)، ينكرون وجود الجوامع بشروس ويبدو إنهما نقلا عن البكري، ولم يقوما بزيارة الجبل![3] .

وما زال هذا المسجد/الجامع قائما وبحالة جيدة، وهو متسع وكبير، طوله حوالي 15 متر وعرضه 15 متر، وله بابان شرقي وغربي، وهو حاليا المبنى الوحيد القائم في شروس وبقية المباني خرائب وأطلال دارسة، وبجانبه بقايا قصر فوق ربوة عالية، وذكر لي بعض أهالي الجبل أن جدران المسجد وأركانه كانت مقسمة على القرى والقبائل المجاورة لشروس، وكل منها مسؤول عن صيانة المسجد والاهتمام به، وهو السبب الذي منع المسجد من الخراب وحافظ على بقائه طوال العصور، كما توجد كتابة على احد سقوف المسجد تدل على أن المسجد قد قام بإصلاحه وصيانته: محمد بن فرج الوزاني أو الوزاني، يوم الخميس أوائل شهر ذي الحجة عام 1275هـ[4] كما كانت توجد فوق الباب الغربي من الخارج كتابة عربية بالخط الكوفي إلا إنها سقطت، كما توجد فوق المسجد مئذنة صغير من الناحية الجنوبية، والمسجد يحتاج إلى صيانة وترميم واهتمام.

5) مسجد أبي منصور إلياس[5]:

أسس أبو منصور مسجده في قرية تندميرة،[6] خلال ق: (3هـ/9م)، واسهم بدوره في ازدهار الحركة العلمية والثقافية بجبل نفوسة. وتم إنشاؤه قبل أن تنتقل القرية إلى حافة الجبل، ويعد من المساجد الكبيرة في الجبل فطوله حوالي (18.5 متر أما عرضه 16 مت)، ويتألف من خمسة بيوت، والمسجد له بابان شرقي وشمالي، وتوجد به عشرة أعمدة.

---

1 - مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص 144.

2 - الحموي، المصدر السابق، ج5، ص297.

3 - من خلال زياراتي للجبل شاهدت عدة مساجد وجوامع قديمة بعضها مبني تحت الأرض وأقدم تاريخ مكتوب شاهدته هو 535هـ بمسجد نسبته: لأبو خليل الدركلي، وربما يكون هذا التاريخ للصيانة والترميم، وتاريخ البناء أقدم منه، على أساس أن أبو خليل عاش قبل هذا التاريخ بوقت طويل، راجع ص 75-76.

4 - 1275هـ/1858م، ربما في هذه السنة كانت صيانة لمسجد شروس.

5 - مسجد أبو منصور إلياس: زرته عام 2004، ينظر الصورة رقم (11) ، واخبرني شاهد عيان احد أهالي القرية (الحاج أمحمد صالح التندميرتي) أن أخر صيانة تمت للمسجد كانت في سنة 1946ف، قام بها أهالي قرية تندميرة.

6 - تندميرة : من قرى جبل نفوسة القديمة، وتقع فوق قمة جبل يطل على وادي تندميرة وهو احد فروع وادي شروس، ومساكن القرية تتجه ناحية الشرق، وأنها كانت في مراحل سابقة تقع إلى الشمال من موقعها الحالي وسكن أهلها حينها الغيران ثم اتجهت ناحية الجنوب على حافة الجبل، ويحدها من الشرق غابات الزيتون والتين والكروم، وكذلك من الغرب حتى مدينة تملوشايت، أما الشمال فهو امتداد لقرية تندميرة القديمة، ومن الجنوب وادي تندميرة، زورتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (12).

كما توجد به (لوحة حجرية، حمراء اللون، مربعة الشكل، وصغيرة الحجم، مقاسها: 15 سم×15 سم تقريب) مثبتة على احد الجدران على يسار المحراب عليها كتابة واضحة وهي : (بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على نبينا محمد واله وصحبه وسلم تسليما [...][1] المسجد في شهر الله المبارك محرم عام خمس وسبعين سنة بعد ثمن مائة في القرن التاسع، وكتب سعيد ابن مصباح ابن إبراهيم رحمه الله رحمه الله).

6) مسجد عمروس بن فتح المساكني[2]:

قام الشيخ عمروس ق: (3هـ/9م) بتأسيسه بقرية إمساكن (قطرس حاليا)، وكان لهذا المسجد إلى جانب المساجد والمدارس الأخرى في الجبل الدور الكبير في نشر العلوم والفنون الإسلامية، إلى جانب نشر الثقافة واللغة العربي، وكثيرا ما كان الشيخ عمروس يعقد فيه المجالس العلمية ويحضرها علماء قريته، والمسجد يتوسط القرية، وهو من المساجد الكبيرة طوله من الشرق إلى الغرب (15 مترا وعرضه من الشمال إلى الجنوب 7 أمتار) له بابان من الناحية الغربية اقفل احدهما، والمسجد يتكون من بيتين تفصلهما مجموعة أعمدة وأقواس.

7) مسجد ايباناين[3]:

الذي بناه الشيخ أبو هارون موسى التملوشايتي بقرية إيباناين[4] خلال القرن)4هـ/ 10م)، وتحديدا بعدما تولي أمور الجبل،[5] وهذا المسجد يأوي إليه طلاب العلم باعدا كبيرة فصار كهفا ومأوى لهم،[6] ومن الطلاب الذين درسوا فيه: أبو محمد عبد الله بن مطكود، وأبو زكرياء يحيى الجناوني (هـ/ م)، اللذان درسا على الشيخ أبي الربيع سليمان بن أبي هارون التملوشايتي.

يقع هذا المسجد وسط جبل القرية، طوله حوالي 8 أمتار وعرضه 10 أمتار له بابان احدهما للرجال والآخر للنساء والمسجد مشيد على أعمدة وأقواس وبجواره في الخارج

1 - طمس في الكتابة، ربما (بني هذا) أو (جدد هذا)، تمشيا مع السياق اللغوي للعبارة.

2 - مسجد عمروس بن فتح: زرته عام 2004، ينظر الصورة رقم (13.

3 - مسجد إيباناين: زرته عام 2004، ينظر الصورة رقم (14).

4 - إيباناين: قرية قديمة تقع فوق جبل عال يعرف باسمها، وما زالت أثارها باقية منها: بقايا القصر الذي يعلو قمة الجبل وحوله وأسفل منه تنتشر المساكن والبيوت، وهي حاليا مهجورة، وينبسط وادي إكراين غرب القرية ومن الشرق وادي إكراين وجبل كباو . ومن الشمال سلسلة جبلية تفصل القرية عن سهل الجفارة، ومن الجنوب ملتقى وادي إكراين وواد أخر يفصلانها عن قرية جليمت الواقعة فوق قمة جبل، زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (15).

5 - الشماخي ، المصدر السابق، ص 20.

6 - البغطوري ، المصدر السابق، ورقة 20؛ الشماخي، المصدر السابق، ص 301.

توجد ساحة فسيحة، ومصطبة على جانبي المسجد وماجل لحفظ مياه الأمطار.

8) مسجد أمسراتن[1]:

يبدو أن الذي قام ببنائه أو شارك في بنائه الشيخ أبو المهاصر جعفر بن موسى الافطماني كما أورد الشماخي ما ذكر من أن أبا المهاصر كان يحمل الخبز في الفخار من منزله وقت أن كان يبني مسجد أمسراتن،[2] يوجد هذا المسجد في مدينة جادو، وقان بدوره العلمي في منطقة الجبل وكان يفد إليه طلاب العلم طيلة القرون الوسطى، ودرس به العديد من العلماء والمشائخ منهم على سبيل المثال: الشيخ أبو سهل البستوني (ق هـ) وكان يدرس التلاميذ في أوقات منتظمة من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس،[3] ولم يذكر البغطوري (ق 6هـ/12م)، مرحلة التعليم ولا ماهية العلوم التي كان يدرسها هذا الشيخ غير إنها لا تخرج عن العلوم الإسلامية كما هو سائد في ذلك الوقت. ويعطينا البغطوري صورة واضحة للبرنامج اليومي للشيخ أبو سهل البستوني حيث يقول: «وكانت عادته إذا صلى الفجر واستفتح مضى لشغل دنياه إلى وقت القائلة فيرجع فيقيل، فإذا قرب الظهر قام وأغتسل للصلاة، ويلبس قميصين معقودين بطوق واحد وعمامة حسنة وكسأة سجلماسة، ثم يمضي إلى مسجد مصراتن، فيؤذن للتلاميذ إلى غروب الشمس ويصلي، ويشتغل في العبادة والصلاة حتى يصلي العصر، ثم يجعل المجلس لتلاميذه إلى غروب الشمس، ثم يصلي المغرب حتى العشاء».[4]

9) مسجد أبي يحيى زكرياء بن يونس الفرسطائي:[5]

يعد مسجد الشيخ أبي يحيى زكريا بن يونس الفرسطائي من المساجد الهامة في الجبل لما قام به من ادوار في التعليم والتدريس ونشر العلوم العربية والإسلامية، أنشأه الشيخ أبو يحيى الفرسطائي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بقرية فرسطا[6] وذلك بعدما أجازه عدة مشائخ من أبرزهم الشيخ أبو هارون موسى الجلالي. ويقع هذا المسجد في وسط جبل القرية، أسفل البيوت بساحة واسعة، وهو من المساجد الكبيرة

1 - مسجد امسراتن: وهذا المسجد ضمن مساجد مدينة جادو، وتم هدم المسجد القديم أكثر من مرة، وبني مكانه مسجد جديد، زرته عام 2004.

2 - الشماخي، المصدر السابق، ص 334-335.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 154-155.

4 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 154-155.

5 - مسجد أبي يحيى زكريا الفرسطائي: زرته عام 2004، ينظر الصورة رقم (16).

6 - قرية فرسطا القديمة تبعد عن مدينة كباو حوالي 2 كلم، وبها قريتان قديمتان الأولى: بن غوري على غربها، والأخرى تمايلت على شرقها، زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (17).

طوله 11 متر، وعرضه 14 مترا، له بابان شمالي وجنوبي اقفل احدهما، والمسجد ما زال بحالة جيدة

ثانيا) المدارس:

أدت المدارس في جبل نفوسة دورا كبيرا في إثراء الحركة الفكرية وتنوعها، وكانت في الأصل موصولة بالمساجد وكان هدفها تحفيظ الصبيان القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ القراءة والكتابة ومبادئ الشريعة الإسلامية،[1] ويطلق عليها: (الكتاب)، أو (المكتب)، ثم تطورت فيما بعد إلى المدرسة بمفهومها المتعارف عليه. كما أن هناك مدارس أسست منذ بدايتها مستقلة عن المسجد، والمدرسة عموما: «تمثل اسمى إنجازات النظام التربوي الإسلامي».[2]

ومن الملاحظ أن العديد من العلماء بمجرد تفرغهم من مرحلة التعليم، يتوجهون بدورهم إلى مهنة التدريس وتعليم غيرهم من الطلاب، ويبدو أن هناك تفاهما وانسجاما كبيرا بين بعض الطلاب واساتذهم، كما كان الأساتذة على معرفة بمستويات وقدرات طلابهم، ونعطي مثال على ذلك ما حدث بين التلميذ أبان بن وسيم وشيخه وأستاذه الشيخ أبو خليل الدركلي، حيث كان أبان من الطلاب المجتهدين عند شيخه المذكور بقرية دركل أو (درشل): «وطلع ذات مرة من درشل حتى خرج من الجبل، فعد سبعين مسألة فنسى منها أربعة مسائل أو خمسة، فعاد كما هو، ولما رآه أبو خليل شيخه، قال له: نسيت مسائل كذا وكذا، فقال له أبان: من أخبرك بها، فقال أبو خليل: يعرف الراعي النفورة من غنمه».[3] ومن ابرز المدارس التي اشتهرت في المنطقة: -

1. مدرسة عمر بن يمكتن: ق: (2هـ/8م):

وبعد الشيخ عمرو بن يمكتن، من علماء القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي،وحفظ القرآن وتعلم العلم بطريقة عجيبة تذكرها المصادر التاريخية عندما كان في منطقة مغمداس حيث يجلس بالقرب من طريق القوافل المار ما بين المشرق والمغرب، ويلتقي بالسافرين فيكتب عنهم القرآن في لوحته ثم يذهب لحفظه ويرجع للكتابة مرة أخرى، وهكذا حتى تمكن من حفظ القرآن الكريم وتعلم العلم.[4] بعدما أنهى الشيخ عمر بن

1 - دبوز، المرجع السابق، ج3، 369.

2 - منير الدين احمد، تاريخ التعليم المسلمين، ترجمة: سامي الصقار، الرياض منشورات دار المريخ للنشر، 1981، ص11.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 96-97.

4 - الشماخي، المصدر السابق، ص 142.

يمكتن تعليمه وحفظه للقران الكريم بمنطقة مغدامس ورجع إلى موطنه بالجبل، في وقت كانت يخلو فيه الجبل من وجود المدارس والمعلمين فرأى ضرورة إنشاء مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة، وأنشئت بالفعل هذه المدرسة في حدود عام (140هـ/758م) بمدينة إفاطمان[1] وتعد مدرسته من أولي المدارس بالجبل لتحفيظ القرآن الكريم، ويشير المؤرخ ابن سلام الإباضي (ت بعد 273هـ/887م)، والى ذلك قائلا: «أن أول من علم القرآن بجبل نفوسة عمر بن يمكتن بمنزل يقال له إفاطمان»،[2] وهذه المعلومة كررها أبو العباس الشماخي في كتابه السير[3] بدون الإتيان بمعلومات جديدة بالرغم من الفارق الزمني بينهما حوالي أكثر من خمسة قرون.

نفهم من النص السابق أن هذه المدرسة سبقت في إنشائها كثيرا من المدارس التي أنشئت في منطقة الجبل، من الناحية الزمنية زان هذه المدرسة قد تكون الأولي من نوعها في تحفيظ القرآن الكريم، ولكن في نفس الوقت هناك معلومة آخر تفيد: أن الشيخ محمد بن مغطير الجناوني هو أول من جمع القرآن الكريم كله في جبل نفوسة وحفظه.[4] والسياق هنا يطرح السؤال التالي: إذ كان ابن مغطير هو أول من جمع القرآن وأتم حفظه لماذا لم يقوم بتدريس القرآن الكريم بالجبل، في وقت كنت المنطقة بكاملها تخلو من معلمين للقران؟ !،[5]هذا إلا إذا كانت هناك معلومات تاريخية تفيد قيام ابن مغطير بذلك وما زال لم يكشف عنها بعد، والمتاح لنا حاليا أن مدرسة ابن يمكتن هي

1 - إفاطمان: تقع مدينة إفاطمان الأثرية على قمة رافد من روافد من روافد وادي تالة (أم القرب) ويحدها من الشرق وادي تالة، وكذلك من الغرب، أما من الشمال فيحدها جبل خشم الجرارة، ومن الجنوب منطقة الظاهر، وتبعد عن مدينة الرحيبات حوالي 25 كلم تقريبا، وكانت قديما تشغل مساحة كبيرة وهذا يلاحظ من خلال أثارها الماثلة للعيان، وفي الحقيقة اغلب أثارها قد تساقط وتهالك ما عدا قصبة ما زالت تعاند الزمان بشموخها، والمنطقة في حاجة إلى دراسات تاريخية وأثرية، وتعد من أهم مدن جبل نفوسة في التاريخ الوسيط، لم أتمكن من تحديد مكان المدرسة وسط ركام الآثار، زرت هذه المدينة عام 2004، ينظر الصورة رقم (18)، ولم يجانب الصواب الدكتور الفاضل صالح الصادق السباني في تحديده لمنطقة إفاطمان بدقة عندما قال: «إفاطمان الواقعة بين الرحيبات والرجبان»، والصواب أنها تقع بين الرحيبات والحرابة، وجاء ذلك في كتابه القيم: ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2006، ص 553.

2 - ابن سلام الإباضي، بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق فيرنر شفارتس وسالم بن يعقوب، بيروت: دار صادر، 1986، ص 126، حسن حسني عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، القسم الأول تونس: مكتبة المنار، 1972، ص 80.

3 - الشماخي، المصدر السابق، ص 142.

4 - احمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 133-134. صالح معيوف، المرجع السابق، ص 90، ليست هناك إحالة إلى مصدر معين لإثبات تلك المعلومة من قبل كلا الباحثين.

5 - في الحقيقة ليس لدي حاليا إجابات وافية ، أو بالأحرى معلومات تاريخية دقيقة نستدل ثم خلالها على الحقيقة العلمية، أرجو من الله أن نتمكن مستقبلا من العثور على ما يفيد في هذا الخصوص.

أول المدارس التي أنشئت من اجل تحفيظ القرآن الكريم وذلك من ضمن اهتمامات أهل الجبل التي تفرعت عنها الدراسات الإسلامية واللغوية الأخرى فيما بعد مثل: الحديث، والفقه، والتفسير، وأصول الدين، وعلوم اللغة العربية، من نحو وصرف وبيان وشعر وأدب وعلم المنطق والجدال، والحساب، وغيرها في المدارس الأخرى التي ظهرت في فترات متتالية بالجبل. وبذلك تكون شخصية عمر بن يمكتن من الشخصيات العلمية والتربوية البارزة في المنطقة لإسهامه في إبراز أهمية الثقافة والتعلم.

2) مدرسة أبي المنيب محمد بن يأنس الدركلي:[1]

أنشأها الشيخ أبو المنيب خلال القرن الثاني الهجري/ القرن الثامن الميلادي، في قرية الجزيرة[2] ومن الملاحظ انه لم يؤسسها في قريته يدركل وذلك على عادة علماء الجبل حيث يؤسسون المدارس ويبنون المساجد خارج قراهم وبلداتهم إسهاما مهم في نشر العلوم في ربوع الجبل. وهو من تلاميذ إسماعيل ابن درار الغدامسي (2هـ / 8م)[3] وبعد بذلك من الطلاب الأوائل الذين تفرغوا للعلم، وكذلك من العلماء الرواد في نشر العلوم وذلك من خلال مدرسته التي أنشأها بالجبل، واستمر إشعاعها الثقافي إلى القرن الحادي عشر، كما كان لها مجموعة فروع في مختلف مدن وقرى الجبل،[4] ويبدو انه كان مهتما بتدريس علم التفسير إلى جانب العلوم الأخرى. وهذا يستنتج من نص أورده الشماخي حيث يقول: «وهو احد الأربعة الذين تكفلوا رد الواصلية[5] الباغين على الإمام، وهو خصوصا تكفل علم تفسير كتاب الله».[6] ومن العلماء الذين تخرجوا على يدي الشيخ أبي المنيب، الشيخ أبي خليل صال الدركلي عاش خلال (ق 3هـ/9م).

3) مدرسة أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي:

أسس مدرسته في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي في قرية ويغو بعدما أنهى

1 - مدرسة الشيخ محمد بن يانس الدركلي: تقع هذه المدرسة في قرية الجزيرة وهي عبارة بناء تحت الأرض موصولة بالمسجد، وهذا يدل على قدم المسجد والقرية، زرتها عام 2004.

2 - الجزيرة: قريبة من قرى الجبل، سميت بالجزيرة لوقوعها فوق جبل ويحيط بها الوديان من كل الجهات ما عدا ووادي إيندل من الجنوب الشرقي، وهي شبه مثلث في شكلها قاعدته عند الغرب ورأسه إلى الشرق، وطولها حوالي كيلو متر ونصف من الشرق إلى الغرب، وعرضها يبدأ من المدخل بحوالي من 15-25 متر وكلما توغلت إلى الداخل زادت المساحة حتى تبلغ في القاعدة حوالي نصف كيلو متر. زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (19).

3 - احمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 116.

4 - المرجع نفسه والصفحة.

5 - الواصلية : يقصد بهم المعتزلة وهي إحدى الفرق الإسلامية، وتنسب إلى واصل بن عطاء (80-131هـ/700-751م)، وسبب تسميتهم بالواصلية اعتزالهم جماعة الحسن البصري بسبب خلاف فكري، ينظر: إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 397-401.

6 - الشماخي، المصدر السابق، ص 166.

أبان الويغوي تعليمه على شيخه أبي خليل الدركلي توجه إلى نشر رسالة العلم والمعرفة، وتخرج على يديه علماء كان لهم الأثر البالغ في الحياة العلمية بالجبل أمثال: أبي القاسم سدرات بن الحسن البغطوري (ت 313هـ/925م) وأبي محمد عبد الله بن الخير (عاش ما بعد 283هـ/896م) وأبي معروف ويدران بن جواد ، وأبدين الفرسطائي، والعالمة زورغ الارجانية وكذلك العالمة أم يحيى[1].

4) مدرسة أبي القاسم سدرات البغطوري:

أسس مدرسته في قد: (3هـ/9م)، لم تشير المصادر إلى مكان المدرسة وعلى الأرجح تكون في قرية بغطورة التي ينتسب إليها الشيخ أبو القاسم، وكان يحث طلابه على الكتابة أي كتابه المعلومات التي يلقيها عليهم، وتدوين الأفكار التي يشرحها لهم، يبين لهم أهمية التدوين. فقد سأله التلامذة: «أنكتب عنك ما سمعنا، قال: اكتبوا ولو بأقلام النحاس، صمت أذن نسيت ما سمعت منذ أربع سنين».[2] ومن طلابه الذين درسوا عليه منهم:

4) مدرسة أبي عثمان سعد بن أبي يونس الطمزيني[3]:

أسس مدرسته في القرن: (3هـ/9م) بمدينة طمزين التي ينتسب إليها، ودرس بها عدد كبير من الطلاب، ويشير بعض الباحثين المعاصرين أن نشاط هذه المدرسة امتد حتى القرن الثامن الهجري/الرابع الميلادي.[4]

4) مدرسة أبي يحيى ماطوس الشروسي:

أسست هذه المدرسة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، في المدرسة شروس، وكانت مدرسته على درجة علمية عالية وأسهمت بشكل كبير في نشر العلوم والفنون في مختلف بقاع الجبل،[5] وسبب ذلك راجع إلى ازدهار تلك الفترة التاريخية من الناحية العلمية، وليس ذلك وحسب وإنما يكون للمكان الجغرافي والبيئة دور وتأثير على الأهالي، فمدينة شروس حينذاك هي عاصمة الجبل، وكانت على درجة كبيرة من النشاط الاقتصادي.

1 - معجم أعلام الإباضية، محمد بابا عمي وآخرون، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (د.ت)، ص 7

2 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 114.

3 - هذا الاسم الصحيح لمؤسس هذه المدرسة وهو من علماء طمزين، وليس كما ذهب الدكتور : صالح السبابي حيث قال: «مدرسة أبي عثمان المزاتي، (ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية)، المرجع السابق، ص 554.

4 - قناطر الخيرات هامش: (1)، ص 161.

5 - محمد بن بابا عمي، المرجع السابق ص 157.

كما أشار إلى ذلك الرحالة ابن حوقل (ت 379هـ/988م): «شروس في وسط الجبل وفيها مياه جارية وكروم وأعناب طيبة وتين غزير وأكثر زروعهم الشعير»[1] بالإضافة إلى تكتلها البشري كما ذكر الحموي (هـ/ م) قائلا: «شروس.. مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية افريقية وهي كبيرو آهلة بالسكان، وهي قصبة ذلك الجبل».[2] وعندما أراد أبي يحيى الفرسطائي (ت ما بين 300-50 هـ/912-961م) الذهاب إلى شروس للتعلم في مدرسة أبي يحيى ابن ماطوس لم يجد بيتا يسكن فيه على كبر المدينة، فقال: ما أوسع شروس وما أضيقها نظرا لازدحامها بالسكان.[3] فالملاحظ أن مدينة شروس كانت من أغزر مدن الجبل علما وكانت مقصد طالبي العلم، وهذا ما سيتضح في أوراق البحث التالية.

5) مدرسة أبي هارون بن يونس الجلالمي:

أسسها صاحبها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكان الشيخ أبو هارون من التجار المعروفين في منطقته الإضافية إلى كونه من المزارعين الكبار، وكانت مدرسته تحوي مبيتا يؤمه الطلاب الذين يأتون من أماكن نائية، فاستطاع الإنفاق عليهم وذلك بان خصص لهم نصيبا مما تنتجه مزارعه، وأرباح تجارته.[4]

وتخرج العديد من العلماء على يدي الشيخ أبي هارون الجلالمي ومن أبرزهم أبو يحيى زكرياء بن يونس، وأبو الربيع سليمان بن هارون، وغيرهم من العلماء.

6) مدرسة أبي الربيع سليمان اللالوتي:

ويرجع تأسيس هذه المدرسة بالجبل إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بمدينة لالوت،[5] على يد الشيخ أبو الربيع اللالوتي، وكان يتبع طريقة في التعليم مغايرة لما هو موجود في ذلك الزمان، فكان يصطحب تلاميذه في رحلات علمية لدراسة البيئات المتنوعة،[6] ولاختيارهم في مختلف الظروف والمناسبات ليعد كلا منهم مستقبلا

1 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 94-95.

2 - الحموي، المصدر السابق، ج3، ص217.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 50، الشماخي، المصدر السابق، ص 310.

4 - المصدر نفسه، ص 278.

5 - لالوت: من المدن القديمة والكبيرة في جبل نفوسة، وتكتب حاليا (نالوت) تقع في أقصى غرب الجبل، موت لالوت بثلاثة مراحل من البناء والسكن عبر العصور إلى أن استقرت على حافة الجبل، وتنقسم إلى لالوت العليا والسفلى ويفصل بينهما الذي ما زال قائما وبحالة جيدة، زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (20).

6 - إن هذه الطريقة في التدريس أو الأسلوب، توحي أن بعض علماء الجبل لهم دراية واسعة بالنفس البشرية، وكيفية التعامل معها، وهذا الأسلوب يعد في وقتنا الحالي من أساليب التربية الحديثة، فمثلا يرى جان بياجيه: «أن من أول مبادئ التربية والتعليم هو أن يكون التعلم شقيا نشيطا... وإتاحة الفرصة أمام الطفل ليقوم

للمكان الذي يناسب قدراته وإمكانياته،[1] وقتل في إحدى رحلاته العلمية كما تشير المصادر: «انه خرج هو وتلاميذه في الخصوص في أيام الربيع فصادفهم بنو تيجين... فقتلوه هو وعزابته... وبلغنا أن أبا الربيع مات وهن ابن سبع وعشرين سنة والتلاميذ يتعلمون عنده».[2] وتخرج على يدي الشيخ أبي الربيع العديد من العلماء الإعلام.

7) مدرسة أبي محمد خصيب التمصمصي[3]:

أسس مدرسته في قرية تمصمص[4] خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكانت هذه المدرسة مختلطة من الجنسين الذكور والإناث، ودرست بها أم ماطوس، واشر الشماخي إلى ذلك قائلا: «أم ماطوس كانت تتعلم عند أبي محمد خصيب وهي بكر».[5] وهي من أوائل الفتيات اللاتي تعلمن في مدارس الفتيان، كما يدل دلالة واضحة على أن طلب العلم كان شائعا في منطقة جبل نفوسة وبشكل مزدهر؟، فلم يقتصر الأمر على الرجال فقط بل حتى النساء شاركن فيه وبلغن درجة الاجتهاد. ومن ابرز طلاب هذه المدرسة أيضا أبو زكرياء يحيى بن سفيان اللالوتي (عاش ما بين 350-400هـ/961-1009م)، وأبو هارون موسى بن هارون (هـ/ م)، اللذان صارا من العلماء فيما بعد.

8) مدرسة أم يحيى (أمسين)[6]:

أسست هذه المدرسة في منطقة أمسين بالرحيبات، أسسها أم يحيى خلال القرن

بتعلم ذاتي، وهذه الطريقة مبنية على= =الاكتشاف، بمعنى أن الاكتشاف ما يريد المعلم أن يكتشفه المتعلمون» ينظر : مريم سليم، علم تكوين المعرفة ابستمولوجيا بياجه، معهد الإنماء العربي، 1985، ص 238.

1 - علي يحيى معمر، المرجع السابق، ج2، ص 90.

2 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 8.

3 - مدرسة ومسجد أبو محمد التمصمصي: تقع في قرية تمصمص وهي موصولة بالمسجد وطولها 9 أمتار وعرضها 6 أمتار بابها من الشمال الشرقي، والبناء مربع الشكل تقريبا وهو يقع في الطرف الغربي للقرية وهي ما زالت بحالة جيدة، زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (21).

4 - تمصمص: وهي من القرى القديمة في الجبل من المحتمل أن تكون تأسست خلال القرن الثالث أو الرابع الهجري، وتقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة طمزين، وتبعد عنها بحوالي كيلو متر تقريبا، ولم يبق من أثارها سوى الغيران التي تستعمل لغرض السكن، ويبدو أنها كانت كبيرة المساحة ويتضح ذلك من خلال الآثار المتناثرة على رقعة جغرافية ممتدة ومتسعة، كما يوجد بها مسجد ومدرسة الشيخ أبو محمد التمصمصي، والي الجنوب من المسجد يوجد بقايا أثار قصر تمصمص وهو عبارة عن ركام من الحجارة والتراب يبدو انه تعرض إلى دمار وتخريب مقصود، وتحيط بالقرية من مختلف الجهات غابة زيتون، ولم يعثر الباحث عن مآل سكان القرية هل هاجروا إلى مكان أخر؟ أم هم الذين أسسوا مدينة طمزين فيما بعد على حافة الجبل؟ زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (21).

5 - الشماخي، المصدر السابق، ص 56-57.

6 - امسين: تقع نطاق هذه التسمية في مدينة الرحيبات حاليا، وتعرف أيضا بوطن امسين، تمتد من قرية امساكن (قطرس حاليا) إلى قرية توكيت، وهناك وادي امسين الذي يجري من خربة امرساون القديمة ويتجه شمالا ناحية سهل الجفارة، وتقع في نطاق هذا الوطن قرية تيميجار، وعين اجلازن، زرت هذه المناطق عام 2005.

الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وهي خاصة بتعليم البنات، وكان بها مبيت تاوي إليه الفتيات القادمات من أماكن بعيدة، وأما الفتيات اللاتي يسكن بالقرب من المدرسة يحضرن الدروس ثم يرجعن إلى أهاليهن.[1]

9) مدرسة أبي زكرياء الباروني:

أسسها صاحبها في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في منطقة وكان الشيخ أبو يحيى الباروني يملك ثروة طائلة ينفق منها على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة، وكانت تشتمل على مدد كبير من الطلاب في حدود المائة طالب، وتذكر بعض المراجع حادثة مفادها: انه في بعض سنوات الجفاف الصعبة هم طلاب المدرسة بالرحيل ليخففوا الوطأة على شيخهم، غير انه صمم على بقائهم، واضطر إلى الكشف لهم عن ثروته المخبأة، وكل ذلك في سبيل بقائهم والاستمرار في مواصلة التعلم التعليم.[2] ومن ابرز تلاميذ الذين تخرجوا من مدرسته: يحيى ابن وجدليش، وابن الفقيه والشاعر أبو نصر فتح ابن نوح الملوشائي (ق 7هـ/13م).

10) مدرسة أبو عبد الله محمد بن سليمان الابديلاني النفوسي:

أسس الشيخ أبو عبد الله محمد الابديلاني ق: (6هـ/ 12م) ينتسب إلى ابديلان[3] - مدرسة واستقبل فيها طلاب العلم من مختلف بقاع الجبل، كما كان يهتم بالتلاميذ اهتماما بالغا إلى درجة انه ينفق عليهم من ماله الخاص، ويشتري لهم الأطعمة والأكسية، فإذا دخل فصل الشتاء اشترى لهم ملابس ثقيلة تقيهم البرد والصقيع، وإذا اقبل فصل الصيف اشترى لهم ملابس خفيفة تناسب حرارة الصيف.[4] وعلى ما يبدو أن هذه المدرسة كانت تحوي على قسم داخلي لإقامة الطلاب الذين يقطنون بعيدا عن المدرسة.

---

1 - احمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 117.

2 - علي يحيى معمر، المرجع السابق، ج2، ص 197-199.

3 - إبديلان: من المدن الكبيرة في جبل نفوسة، ويدل على ذلك اتساع وامتداد خرائبها وأثارها، وهي واقعة ما بين وادي ابديلان ووادي تالة، تحيط بها غابات الزيتون من جميع الجهات تمتد المدينة من ناحية شمالها الشرقي وتظل على وادي ابديلان كما تمتد ناحية الجنوب الغربي باتجاه قرية إمساكن، ويحيط بها من الجنوب غابة زيتون وتمتد إلى منطقة الظاهر، كما تحدها قريتا الشياب والسلامات من الشمال الغربي، وهي حاليا عبارة عن خرائب وأطلال دارسة، لم يبق منها سوى مسجد من المحتمل أن مسجد أبي الحسن الابديلان، كما يوجد أثار لكنيسة ما زال أجزاء منها قائما، زرتها عام 2005.

4 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 181؛ الشماخي ، المصدر نفسه، ص 406.

11) مدرسة أبو موسى عيسى الطرميسي[1]:

تأسست هذه المدرسة في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في قرية طرميسة[2] وهي موصولة بأحد المساجد، ومازالت المدرسة بحالة جيدة طولها 14 متر، وعرضها 5 أمتار تحيط بها غابات الزيتون من كل ناحية. قصدها الكلاب من مختلف مناطق الجبل، وكان الشيخ عيسى الطرميسي يوجههم نحو تأليف الكتب والمؤلفات وعدم الوقوف على الرواية الشفوية، ويشجعهم على ذلك ومن ثمرة عطائه وتوجيهه أن أنجبت مدرسته عالمين اتبعا نصائح أستاذهما الشيخ إسماعيل الجيطالي، والشيخ عامر الشماخي عامر الشماخي، اللذان كانت لهما عدة مؤلفات سيأتي الحديث عنها[3].

12) مدرسة أبي زيد المزغورتي[4]:

أنشأها الشيخ أبو زيد المزغورتي في قرية مزغورة،[5] وهي عبارة عن بناء تحت الأرض (غار)، وقد بني فوقها حديثا مسجد سمي على اسم الشيخ أبي زيد، وطول المدرسة حوالي 10 أمتار وعرضها تقريبا 6 أمتار، وتتكون من حجرتين توافد عليها العديد من طلاب العلم من مختلف قرى ومدن الجبل، كما درس بها عدة علماء ومشايخ مثل: الشيخ أبي موسى عيسى الطرميسي انتقل للتدريس فيه عام (700هـ/1300م)، فور تخرج كل من الشيخ عامر الشماخي، والشيخ إسماعيل الجيطالي من مدرسة طرميسة على يد الشيخ أبي موسى قاما بالتدريس في مدرسة الشيخ أبي زيد المزغورتي، بالإضافة إلى الشيخ أبي عزيز الشماخي قام بالتدريس أيضا.

13) مدرسة عامر بن علي الشماخي (الأولى):

بعدما تخرج الشيخ عامر الشماخي من مدرسة شيخه الطرميسي سنة (756هـ/ 1355م)، انتقل للتدريس بمدرسة المزغورتي فترة من الزمن، ثم توجه نحو قرية ميتيون[6]

---

1 - مدرسة عيسى الطرميسي: زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (22).

2 - طرميسة : وهي من قرى مدينة جادو وتبعد عنها 5 كلم تقريبا، تقع طرميسة على قمة جبل في موقع يعتبر استراتيجيا بالنسبة للعصور الوسطى، تحيط بها حافة الجبل من جميع الجهات وكأنها جزيرة يحيطها الفضاء ما عدا الناحية الجنوبية التي تعد المدخل الرئيسي للقرية وبالمدخل أقام الأهالي خندقا لغرض الدفاع والتحصين وبذلك تكون القرية محصنة بشكل طبيعي. يوجد بها مسجد تحواريت، وتشتهر بغراسة أشجار الزيتون، زرتها في سنة 2004، ينظر الصورة رقم (23).

3 - إسماعيل الجيطالي، قناطر الخيرات، ج1، تحقيق عمرو النامي ، ص 11.

4 - مدرسة الشيخ أبي زيد: زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (24).

5 - مزغورة: من قرى مدينة جادو، وتقع في قمة الجبل تجاورها قرية تندباس وجماري، زرتها عام 2004.

6 - ميتيون : تقع على قمة جبل تحيط بها غابات الزيتون من جميع الجهات، وهيب إلى الشمال الشرقي من وادي امسين وقرية تيميجار، يوجد بها أثار لغيران يبدو أنها كانت تتخذ للسكن، وبها مسجد يعرف باسم (الميتيونية)

وأسس بها مدرسة سنة 743 هـ وأقام يدرس بها حوالي ثلاثة عشرة عاما،[1] وتخرج منها العديد من الطلاب الذين أسهموا في الحياة العلمية في داخل الجبل وخارجه.

14) مدرسة عامر الشماخي (الثانية):

بعد إن اطمأن الشيخ عامر الشماخي على أحوال مدرسته في اميتيون قرر العودة لمدينة يفرن في أقصى شرق جبل نفوسة، وهي مسقط رأسه، ومرتع صباه وبها اخذ أول تعليمه، فأنشأ مدرسة بقرية المعانيين[2] حوالي عام (756هـ/ 1355م)،[3] ودرس بها حتى وفاته عام (792هـ/1425م)، وتخرج من هذه المدرسة العديد من الطلاب، الذين صار البعض منهم علماء وفقهاء كبار منهم على سبيل المثال: ابنه أبو عمران موسى (807هـ/1439م)، وابن ابنه سليمان، وأبو الفضل بن إبراهيم البرادي[4] (حي في عام 810هت/1407م)، ونوح ابن حازم المرساوني (806هـ/1403م)، الذي طلب من شيخه عامر أن يؤلف كتابا في العقيدة فقام الشيخ بتأليف: متن الديانات، وغيرهم من طلاب العلم والمعرفة.

يبدو انه اسم لأحد نساء القرية لم نعثر على اسمها بالكامل، زرتها عام 2005.

1 - الشماخي، المصدر السابق، ص 559-560.

2 - المعانيين: قرية من قرى مدينة يفرن تقع فوق ربوة عالية، وهي تتوسط باقي القرى إذ تحدها من الشرق قرية البخابخة، ومن الغرب قرية الشقارنة ويفصل بينهما وادي عيسى الذي تنتشر فيه أشجار الزيتون والتين، ويوجد به بئر ماء كانت = = تشرب منه القرية قديما، ومن الشمال قرية قصبة مادي والقصير، ومن الجنوب قريتي القرادين والمشوشيين، ومن معالمها التاريخية مدرسة ومسجد الشيخ عامر الشماخي وللأسف فقد هدم الأهالي جزءا مهما ن المدرسة وهي الخلاوي التي كان يدرس بها الطلبة كما أزيلت مقبرة الطلبة الغرباء في إطار توسيع المسجد وهذا ناتج عن عدم تقدير واهتمام، وقد جددت المدرسة في الوقت الحالي في صورة منارة عامر الشماخي لتحفيظ القران الكريم، ومن المعالم الأثرية مشهد زكوان، ومعاصر الزيتون القديمة، وما زالت خرائب اتمعان وأثارها قائمة وفي حاجة ماسة إلى الصيانة والترميم، وترجع أصول كاتب هذه السطور لهذه القرية ينظر الصورة رقم (25).

3 - هذا الصواب وهو ما تؤكده المصادر التاريخية، وليس كما قال الدكتور صالح السباني: أن الشيخ عامر الشماخي بعد تخرجه من مدرسة شيخه أبي موسى الطرميسي رجع إلى مدينة يفرن وأنشأ بها مدرسة ثم انتقل إلى مدرسة موغورة وشارك في إدارتها، ثم انتقل إلى مدرسة مزغورة وشارك في إدارتها، ثم انتقل إلى الرحيبات وأسس في ميتيون مدرسة. الموجع السابق، ص 570.

4 - أبو الفضل بن إبراهيم البرادي الدمري: كان حيا في سنة: (810هـ/1407م)، ولد بجبل دمر في الجنوب التونسي، درس في مسقط رأسه، ثم انتقل إلى جزيرة جربة حيث تلقي العلوم فيها على عدة مشائخ منهم: يعيش بن موسى الزواغي، ثم انتقل إلى يفرن بجبل نفوسة وتتلمذ على الشيخ عامر الشماخي، [ونلاحظ هنا اختياره منطقة جبل نفوسة لمواصلة تعليمه بعد دراسته في كلا من: الجنوب التونسي وجزيرة جربة، وهذا يؤكد على أن الدراسة في الجبل وقتذاك كانت على درجة عالية من الازدهار العلمي والثقافي، وإلا لاختار البرادي مكان أخر أو اكتفى بذلك وتفرغ للتدريس]، ثم رجع إلى دمر ومنها إلى جربة/ واخذ ينشر ما تعلمه وقام بالتدريس، كما تولى رئاسة حلقة العزابة، وترك البرادي عدة كتب منها: الجواهر المنتقاة، ورسالة الحقائق، رسالة في تقييد كتب أصحابنا، البحث الصادق، جواب لبعض أهل الخلاف، شرح الطهارات، وغيرها من الكتب، للمزيد انظر: معجم أعلام الإباضية، ج 2، ص 340.

ويلاحظ إسهام اغلب العلماء الذين درسوا في مختلف المساجد والمدارس التي تم ذكرها أنفا نتاج علمي غزير ومؤلفات متنوعة، يكون مآلها عادة أرفق المكتبات.

ثالثا) المكتبات:

كان من ثمار ازدهار الحياة العلمية في جبل نفوسة تراكم الكتب والمؤلفات والتي منها ما جاء عن طريق تجارة الكتب التي كانت معروفة آنذاك، ومنها ما جاء من المشرق العربي في إطار حركة التبادل الثقافي ما بين المشرق والمغرب الإسلاميين خلال العصور الوسطى، والقسم الأخير إنتاج قرائح علماء الجبل الذين أكثروا من التأليف في فترة كانت فيها المنطقة العربية والإسلامية على قمة التطور الحضاري في العالم قاطبة.

وهنا يطرح السياق السؤال التالي: ما هي أول مكتبة تأسست في المنطقة؟ وكيف جاءت الفكرة؟ وكيف تطورت؟ قبل تتبع نشوء المكتبات وتطورها تنبغي الإشارة إلى وجود نوعين من المكتبات في الجبل كما هو الحال في أي مكان آخر وهي:

أ) المكتبات الخاصة: وهي التي يملكها شيوخ وعلماء يتوارثها أبناؤهم جيلا بعد جيل، وربما تؤول بعضها إلى المكتبات العامة بفعل تنفيذ وصايا بعض المشايخ والعلماء بعد وفاتهم بان تورث وتوهب مكتباتهم العلم، وهذا ما فعله الشيخ أبو الربيع ابن أبي هارون عندما أوصى وقال: «مصاحفي وكتبي وجبابي كلها حبس لوجه الله تعالى، لا تورث ولا تباع ولا توهب حتى يرثها الله وهو خير الوارثين».[1]

وكذلك الأمر مع الشيخ أبي موسى عيسى الطرميسي الذي حبس مكتبته على طلبة العلم وفقهاء نفوسة.[2]

ب) المكتبات العامة: وهي مفتوحة أمام القراء وطلاب العلم، وملكيتها لجميع أفراد المجتمع، وهي أما تكون في المساجد، بمعنى بعض المساجد تحتوي على مكتبة أو تكون المكتبة في بناء مستقبل وسيأتي الحديث عن هذا لاحقا.

إن المصادر التاريخية، وكذلك المراجع الحديثة لا تتحدث باستفاضة عن ظهور المكتبات في الجبل، ولا عن تطورها وما يتعلق بها من معلومات تفصيلية. سوى أن هناك من يشير إلى كثرة المكتبات بالجبل والحاوية للكتب النفيسة إلا أن معظمها تعرض للضياع والحرق، بسبب الفتن والقلاقل التي شهدها الجبل بعد القرن العاشر الهجري،[3] فلذلك سوف يتلمس الباحث معلوماته بهذا الصدد من بطون المصادر.

---

1 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 28.

2 - الشماخي، المصدر السابق، ص 552-553.

3 - دبوز، المرجع السابق، ج3، ص 388.

يشير الوسياني (كان حيا عام 557هـ/1161م) إلى وجود مكتبة بالجبل حيث يقول: «وكان الديوان [المكتبة][1] في نفوسة»[2]، وهذه المكتبة تعد من المكتبات الكبيرة وتحوي على عددا هائلا من المؤلفات كما أشارت بعض المصادر التاريخية: أن الشيخ أبا العباس احمد بن أبي عبد الله محمد بن بكر (ت 504هـ/1111م)، اجتهد في قراءة الكتب بهذه المكتبة لفترة أربعة أشهر لم ينم خلالها سوى ساعات بسيطة ويقدر عدد الكتب التي رآها بثلاثة وثلاثين ألف كتاب.[3] وذلك العدد الكبير من الكتب نفسه مشار إليه في رواية الباروني (ت 1359هـ/1940م)، عندما تحدث عن مكتبة بمدينة شروس المشهورة بخزانة نفوسة، ورأى أنها جامعة للآلاف المؤلفة من الكتب.[4] ويتضح من خلال لغة الأرقام (ثلاث وثلاثون ألف كتاب) في مكتبة واحدة، ناهيك عن الخزائن والمكتبات الأخرى المعروفة وغير المعروفة وما تحتويه من مؤلفات ومصنفات لذلك يعد الجبل على درجة من الرقي العلمي والازدهار الفكري.

كما تشير المصادر التاريخية إلى مكتبة أخرى موجودة في (قصر ولم)،[5] التي مكث فيها الشيخ أبو محمد بن مهدي وارسفلاس (النصف الأول ق: 5هـ/11م)، مدة طويلة قدرت باثني عشرة سنة، للدراسة وطلب العلم.[6] وان هذه المكتبة موجودة داخل (قصر ولم)، في مدينة شروس، وربما تكون هذه المكتبة هي نفسها المكتبة الأنفة الذكر التي ذكرها الباروني والمشهورة (بخزانة نفوسة)، لان كلتيهما بمدينة شروس، الأولى تحتوي على إعداد كبيرة من الكتب، والأخيرة تبدو في نفس المستوى، بدليل مكوث الشيخ أبي محمد وارسفلاس مدة اثنتي عشرة سنة يدرس بداخلها.

من هنا نستنتج إن جبل نفوسة احتوت مدنه وقراه مكتبات (خاصة وعامة)، امتلأت

1 - جاء عند الشماخي الديوان بمعنى المكتبة حيث يقول على لسان أبي العباس الفرسطائي: «فدخلت إلى الديوان، وكان بجبل نفوسة ديوان اشتمل على تأليف كثيرة» ص 424.

2 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 282.

3 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 282، الدرجيني، الطبقات، مصدر سابق، ص 445.

4 -سليمان عبد الله الباروني المصدر السابق، ج2، ص 209.

5 - قصر ولم: يقع هذا القصر في أعلى جبل (ولم) الذي سمي القصر على ما يبدو باسمه، وما زالت أثار القصر باقية، ومن خلال بناء القصر يتضح انه كان يستعمل كغيره من قصور الجبل لتخزين قوت وتموين الأهالي إلا أن هذا القصر على حسب ما ذكرت المصادر استمل جزء منه مكتبة عامة للقراءة والمطالعة والتأمل، لان موقعه النائي والبعيد عن الحرة المدنية وضجيجها يوفر الهدوء والسكون: كما يبدو انه يحوي على حجر للإقامة تسمح لطلاب العلم والقراء المكوث لفترات طويلة دون الحاجة للنزول من قمة الجبل، ويطل القصر على مدينة شروس إلى الشمال الشرقي منها، وتعد هذه المكتبة من اكبر المكتبات العامة في جبل نفوسة قاطبة. زرت هذا القصر عام 2004، ينظر الصورة رقم (26).

6 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 104؛ الشماخي، المصدر السابق، ص 327.

معظمها بالكتب والمؤلفات، واستفادت منها طبقة المتعلمين والفقهاء وغيرهم من القراء، في دراساتهم وبحثهم عن العلوم والمعارف.

وهذه الحركة العلمية، والنهضة الثقافية التي انتشرت في ربوع الجبل بفعل نشاط المراكز الثقافية والتعليمية من (مساجد، ومدارس، ومكتبات)، اعتمدت على الموروث العلمي والثقافي الذي خلفه العلماء السابقون للأجيال اللاحقة، من مناهج تعليمية وطرق تدريس، وكم هائل من المؤلفات والكتب النفيسة وكل ذلك شكل ركائز الحياة العقلية في الجبل على مر القرون. كما نشط علماء الجبل في حركة الترجمة وتعريب عدة مؤلفات فارسية ورومية وغيرها.[1] كذلك استفاد علماء الجبل من مكتبات المناطق المجاورة مثل: مكتبات مدينة طرابلس الملحقة بمساجدها، والمكتبة المعصومة بتاهرت، بالإضافة إلى مكتبات تونس في كل من جربة والقيروان.[2] وبذلك يتضح وجود مناخ علمي مزدهر ساد مدن وقرى الجبل، مما ساهم في انتشار العلوم، وتعدد مصادر وأنواع التعليم والتعلم.

1 - دبوز، المرجع السابق، ج3، ص 405.

2 - احمد مختار عمر، المرجع السابق، ص109.

2. التعليم في البيوت والتعليم المتنقل:

وتشير بعض المصادر إلى أن هناك العديد من الطلاب من تعلم العلم في بيته وصار من العلماء فيما بعد، ولم يدرس في المساجد أو المدارس وذلك راجع إلى أن العلماء يمكثون في بيته لفترات طويلة. كما حدث مع أبي محمد عبيدة بن افلح (ق 4هـ/10م): «قيل: يمكث عنده بعضهم أربعة أشهر، وقيل :ستة يطعمهم من ماله».[1] ومن العلماء الذين يكثرون الإقامة عنده أستاذه الشيخ أبو عبد الله جلداسن اللالوتي.[2]

وكذلك نجد أبا موسى عيسى ابن زرعة التملوشايتي، نسبة إلى مدينة تملوشايت،[3] عاش خلال (ق 4هـ/10م)، الذي كان كريما وسخي الكف، تعلم العلم هو الآخر في داره لكثرة ما يتردد عليه العلماء والشائخ ويقيمون عنده.[4] والتعليم في المنازل إذا جاز لنا التعبير هو أمر يحدث في نطاق ضيق، للذين لهم قدرة مادية تمكنهم من إطعام المشائخ والصرف على ما يحتاجونه، وهذا ما يتضح ويتوفر في كل من الشخصيتين السابق ذكرهما: أبي محمد بن افلح الذي كان يطعم شيوخه ويؤويهم، وكذلك الأمر مع أبي موسى عيسى بن زرعة الذي وصف بالسخاء والكرم، ويوجد بمدينة تملوشايت مسجد يعرف باسمه.[5] وكذلك الشيخ أبو علي النفوسي من فساطو، وهو من علماء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، كان يقصده المشايخ وطلاب العلم ويمكثون عنده فترات طويلة من الزمن، ويقوم بإطعامهم والإنفاق عليهم.[6]

كما لاحظت من خلال المصادر التاريخية وجود أساليب وطرق أخرى للتعليم والتعليم في الجبل تمثلت في تنقل بعض العلماء برفقة طلبتهم أحيانا، يطوفون بين القرى والمدن بالجبل مكن اجل تعليم الآخرين، ونشر العلم والثقافة، وربما تطول فترة التجول لسنين قبل أن يعود الأستاذ إلى موطنه وأهلهـ وتشير بعض المصادر التاريخية إلى ذلك المعنى: «ومنهم أبو النجاة يونس التملوشايتي، وكان عالما ورعا وله حلقة، وكان يطوف بطلبته

1 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 158.

2 - الشماخي، المصدر السابق، 335.

3 - تملوشايت: من مدن الجبل ، كانت قديما تشغل مساحة كبيرة جدا ويتضح ذلك من أثارها فهي تتكون من سبع قرى: قرية القصر نسبة لقصر المدينة، وقرية ماجر، وقرية ايدليل، وقرية اميطار، وقرية امحجل، وقرية توزنزرت، قرية ثلاث خرب، ويحدها من الغرب مدينة طمزين ، ومن الشرق تندميرة: ومن الشمال جبل أبو نصر، ومن الجنوب شعبة السانية ويليها جبال ووديان، زرتها عام 2004، ينظر الصورة (27).

4 - المصدر نفسه، ص 316.

5 - مسجد الشيخ أبي موسى عيسى بن زرعة: ما زال بحالة جيدة، زرته عام 2004.

6 - البغطوري المصدر السابق، ورقة 158.

في جبل نفوسة غاديا ورائحا، يذكر، ويوعظ،[1] ويأمر، وينهى، وقيل رجع مرة إلى بلده على سبعة أعوام، وقيل أقام بيفرن عاما».[2] وهذه المسالة تتكرر مع علماء آخرين قاموا بنفس الدور، فالشيخ أبو زكريا يحيى سفيان اللالوتي، ويبدو انه كان يخرج بحلقته ومعه تلاميذه ويطوف بهم في مختلف أرجاء الجبل ويذكر البغطوري: «انه بات وتلاميذه في تمايلت».[3] وكذلك الشيخ أبو عبيدة جلدين البغطوري المنتسب لقرية بغطورة، واخذ علومه عن الشيخ أبي عبد الله محمد ابن جلداسن اللالوتي، وكان معروفا بكثرة الأسئلة إلى شيوخه لشغفه بالعلم والثقافة، عاش جلدين في بداية حياته فقيرا وخصوصا فترة التعلم فكان لا يأكل الطعام المطهي سوى مرة كل أسبوع، أما في سائر الأيام فاقتصر طعامه على الشعير يبله في الماء ثم يصره ويأكله، كما كان يأكل بعض أنواع النباتات وخاصة ما يعرف بالخبيز.[4] غير أن إصراره على مواصلة تعليمه وحبه للعلم والعلماء جعله يتحمل كل الظروف المادية الصعبة، حتى صار عالما كبيرا فيما بعد وممن يشار إليه البنان، ودرس عليه عدد من الطلاب نذكر منهم على سبيل المثال: توزين بن أبي محمد عبيدة بن زارود التغرميني.

كانت له حلقة علمية ويتبع نظام التجوال بحلقته وطلابه في مختلف قرى ومدن الجبل «وكثيرا ما ينزل بأصحابه الذين يتعلمون عنده إلى اوتلجام»[5] عند أبي يعقوب فيمكث عنده شهرا».[6] والشيخ أبو يعقوب هذا كما يصفه الشماخي: «كان غنيا يمكث عنده أبو عبيدة شهرا في بعض الأوقات هو أصحابه وهو مع ذلك من العلماء المشار إليهم»[7] ويمكن أن نطلق على هذا النوع من التعليم نظام (الحلقات المتجولة) حيث كان يطوف الشيخ أو العالم بحلقته وطلابه في مدن وقرى الجبل ويجلس إليهم الناس من مختلف الأعمار رجالا ونساء وبذلك ينتشر العلم في البقاع.

1 - الصواب: يعظ.

2 -- الشماخي، المصدر السابق، ص 555.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 12.

4 - المصدر نفسه، ورقة 115-116؛ الجيطالي، المصدر السابق، ص 147؛ الشماخي، المصدر السابق، ص 328-329.

5 - اوتلجام: من القرى القديمة بالجبل،وتقع فوق ربوة في وسط واد عميق محاطة بالجبال، ما زالت أثار مساكنها باقية حول الربوة وفي أعلاها أثار قصر القرية الذي كان يستعمل للتخزين، ويقابله من الجهة الجنوبية آثارا بناء أخر يبدو انه قصبة كانت تستعمل للحراسة والمراقبة، كما توجد بها أثار مقبرة تقع إلى الشمال من القرية، ويحدها من الشمال مجرى وادي اوتلجام الرئيسي، ومن الجنوب جبل عال فوقه قصر الباروني، ومن الغرب قرية تترغت في أعلى جبل تترغت وتبعد عنها حوالي 4 كلم، ومن الشرق وادي مجرى وادي اوتلجام، وتبعد عن قرية دجي إلى الغرب حوالي 6 كلم تقريبا، واقرب مياه الشرب للقرية آبار اوزقر إلى الجنوب الغربي منها، زرتها عام 2004، ينظر الصورة رقم (28).

6 - الشماخي المصدر السابق، 228-229.

7 - المصدر نفسه، ص 331.

ويمكن للدراسة أن تتساءل عن أسباب ذلك التنقل والترحال بين المدن والقرى؟ لوحظ أن بعض علماء الجبل لا ينتظرون مجيء الطلاب والتلاميذ للجلوس عندهم لتلقي العلوم ! بل كانوا يرون ضرورة الخروج إلى الناس عامة، ومشاهدة ما يجري بينهم حتى يتسنى لهم تقييم الأوضاع عن قرب، ومن ثم يتمكنون من محاربة الجهل، ويقومون الانحرافات والأخطاء، خاصة في المناطق والإحياء التي ينعدم فيها وجود العلماء والمعلمين والمدارس، ومن ناحية أخرى ليتمكن الذين لن تتوفر لهم الإمكانية للسفر وطلب العلم وخاصة النساء والعجائز، كما فعل الشيخ أبو حسان خيران بن ملال الفرسطائي:»عادته التنقل في المنازل [القرى] لإحياء الدين، وتقوية الضعفاء، وتعليم الجهال، وتنبيه الغفال وربما مكث في ذلك زمانا لا يرجع إلى أهله، وتحضر العجائز والنساء مجالسه«[1] ومن عادته أيضا زيارة إحدى نساء الجبل وكانت معروفة بالعلم والكرم، وهي أم الربيع من قرية وريوري[2] ويمكث عندها فترات طويلة ويقيم مجالسه العلمية في بيتها، وليس هذا فحسب بل كانت تساعده من الناحية المادية في بعض الظروف والمناسبات،[3] وهنا يتضح دور المرأة العلمي والاجتماعي في الجبل إلى جانب الرجال دون أي حرج . كما أن الشيخ أبا زكرياء يحيى بن أبي يحيى[4]ق: (5هـ/11م) الذي ينتقل بحلقه وطلابه في مختلف بلاد يفرن[5] لنشر العلم، ولتذكير الناس ووعظهم.[6]

ويفهم من خلال ما تقدم أن نزول العلماء إلى الناس والذهاب إليهم، وعدم انتظارهم تعد سمة حسنة لأولئك العلماء، ودلالة على تواضعهم، ورغبتهم الصادقة في بذل الجهد من اجل نشر العلم وتعميمه بين الناس، وان هذا الأسلوب لوحظ تكراره مع أكثر من عالم على مختلف القرون الوسيطة، وبذلك يمكن أن نقول أن التعليم المتنقل

---

1 - المصدر نفسه، ص 309.

2 - وريوي: من قرى الجبل القديمة، وهي تقع في وادي الشيخ، إلى الغرب من مدينة كباو.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 18، ومن تلك المناسبات يذكر البغطوري في نفس الورقة:»أن الشيخ أبا حسان كان فقيرا، وفي إحدى زيارتها لام الربيع الوريورية، وكان الوقت قريب من عيد الأضحى، وفكر هو أن يمكث عندها في هذه المناسبة، إلا أنها وبدون علمه أرسلت مع خادمها إلى أهل بيته شاة ومعها كل مستلزمات العيد، وفي يوم الوقوف بعرفات، قالت للشيخ قم والحق بأهلك، ولما رجع إلى بيته كارها، وجد لديهم كل ما يحتاجه الناس في عيدهم«.

4 - لم تتحدث المصادر الإباضية عن هذه الشخصية سوى الشماخي في سبه، وروى عنه المؤرخ أبو زكريا يحيى الوارجلاني في كتابه: (الأخبار وسير الأئمة). محمد بابا عمي، المرجع السابق، ص 453.

5 - لا يقصد بيفرن هنا (مدينة يفرن الحالية) فقط، وإنما على كل المناطق المجاورة لها يطلق عليها وقتذاك (وطن يفرن)، أو (جزيرة يفرن)، وتحدد حوزتها من سفيط إلى هنشير البحيرة، ومن زارة إلى حجرة مزغورة وهي تمثل القسم الثالث والشرقي لجبل نفوسة. ينتظر: حبس الأملاك معتوق بن سالم بن جراد الميكاطي الشقروني الورسطفي، وثيقة، مكتبة الأستاذ عبد الله الشماخي، فرن، بدون تصنيف، ورقة 1.

6 - الشماخي، المصدر السابق، ص 553-554.

يعد ظاهرة ايجابية تسير في خط ازدهار الحياة العلمية في جبل نفوسة، كما أن تنقل العلماء في أرجاء الجبل يتيح.

لهم فرصة لقاء علماء آخرين، ومن الطبيعي أن تثار بينهم المسائل العلمية، والنوازل الفقهية والكلامية، فيقومون بالمناقشات والحوارات، وبذلك تتلاقح الأفكار وتنتشر العلوم والفنون، وتزدهر الحلقات والمجالس العلمية.

3. الحلقات والمجالس العلمية:

وتعد الحلقات والمجالس العلمية من الوسائط التعليمية والثقافية المتوفرة إمام طلاب العلم في جبل نفوسة، إضافة للوسائط الأخرى التي ذكرناها سابقا والمتمثلة في: (الكتاتيب، والمدارس، المساجد، والمكتبات)، والى الرحلات العلمية لمن تسمح لهم ظروفهم وإمكانياتهم المادية وغيرها للسفر إلى مراكز الحضارة الإسلامية المعروفة وقتذاك. وكانت تلك المجالس مفتوحة إمام الجنسين رجالا ونساء ويشير البغطوري إلى هذا المعنى قائلا: «أن المشائخ كانوا قد اجتمعوا بموضع يسمى تين درشل،[1] فوجهت [أي آمة الواحد] أبا عامر وضارتها، قالت لهما: احضرا أنتما مع الجماعة...ثم أرسلت إليهما أن اجتهدا فيما كنتما فيه من الخير».[2] وفي الحقيقة هناك العديد من الأمثلة التاريخية التي تؤكد على مشاركة المرأة في المجالس العلمية إلى جانب الرجال، وليس هذا فحسب بل إنها كثيرا ما تشارك بآرائها وأفكارها.

وهناك نص آخر للبغطوري يشير إلى أهمية المكان في (تين درشل) المذكور في النص السابق، ويبدو انه كان من الأماكن المعروفة لانعقاد المجالس العلمية حيث يقول البغطوري: «أن جماعة اجتمعوا بموضع يسمى تين درشل في طلب العلم، وفيهم أبو نصر من أهل تمصمص وكان هو المفتي لهم، وفيهم نفاث بن نصر، وكان يلقي عليهم مسائل ولم يعلم بها أبو نصر حتى جاءهم مهدي وعمروس بن فتح ولما وصلا سكت نفاث»،[3] ونستنتج من هذا النص أن بعض المجالس العلمية كانت تعقد من اجل المناظرات والمحاورات العلمية والكلامية خاصة هنا وبحضور الشيخ بن نصر وهو معروف بمعارضته لمشايخ وعلماء الجبل في العديد من المسائل الفقهية والكلامية.

أذن فالحلقات والمجالس العلمية برزت في المنطقة وأثرت بشكل كبير في الحياة الفكرية، ومن خلال المصادر التاريخية نلاحظ تنوع واختلاف الأماكن التي تعتقد تلك الحلقات والمجالس،[4] فتارة تكون في المدارس والمساجد وتارات أخرى في منازل العلماء والمشائخ، وحتى في الساحات العامة والغابات. وكان يقصدها من يرغب فيها دون قيود،

1 - تين درشل: هي نفسها قرية: دركل التي ذكرنها فيسما سبق، راجها صفحة 75، هامش (1).

2 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 84.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 108-109.

4 - لاحظت في المصادر التاريخية أن هناك دارا يطلق عليها، دار بني عبد اله، وهي دار محمد الدرفي، وكانت بمدينة جادو، والدليل على أنها بجادو ما أورده البغطوري قائلا: «وروى انه [الشيخ ابن اكبت]، لما وقع في مرضه الذي مات فيه في دار بني عبد الله في سوق جادو»، وفي هذه الدار كان يجتمع فيها العلماء والمشائخ من الجبل ويقيمون فيها مجالسهم العلمية، وبعض العلماء كان يطلق عليها دار الجهاد، وموضع الرباط، وذلك لدورها العلمي والثقافي في جبل نفوسة، البغطوري، المصدر السابق، ورقة 27؛ الشماخي المصدر السابق، ص } .

ومن المشائخ الذين كان له حلقة علم، الشيخ يحيى بن يونس السدراتي أبو زكريا الونزيرفي، ق: (3هـ/9م)، وينتسب إلى قرية ونزيرف، تحدثت عنه كتب السير والطبقات مشيرة إلى صلاحه وتقواه، وادئه للمعروف، قال عنه الدرجيني: «أبو زكريا يحيى بن يونس رحمه الله كان من أهل الورع والزهد، وممن اخذ نفسه بالمعهود والجهد ساعيا في الصلاح، داعيا إلى طرق الفلاح، هاديا إلى الرشاد، مغيرا للفساد»، ويذكر له آثار تدل على كرم أخلاق، ورفعة نفس وطهارة قلب. وشيخنا أبو زكريا هذا كانت له حلقة للتعليم درس عليه فيها طلاب صاروا فيما بعد علماء أجلاء لهم شأنهم في التاريخ العلمي والثقافي ببلاد الغرب الإسلامي منهم تلميذه: أبو مسور يسجا بن يوجين اليهراسني، وذلك العالم الكبير الذي قدم من الجنوب التونسي، وفور تخرجه رحل لجزيرة جربة وكان له فيها علمي كبير.

ومن حلقات العلم بالجبل، حلقة الشيخ أبو ميمون بن احمد الجيطالي (ت: 283هـ/896م)، وهذه الحلقة لا تعرف الانقطاع أو الفتور في مختلف الأحوال في الإقامة والترحال.[1] ومن العلماء الذين كانوا يعقدون مجالس علمية الشيخ أبو الشعثاء السنتوتي نسبة إلى قرية سنتوت،[2] وكان عالما ورعا، وكانت النساء تحضر مجالسه ليلا ومعهن أولادهن، ويأتون إليه منة مسافات بعيدة تقدر بعضها بأربعة وعشرين ميلا.[3]

ويبدو أن لمعركة مانو اثر كبير على الحركة العلمية والثقافية بالجبل، كيف لا، وقد مات فيها عدد هائل من العلماء قدره البعض بأربعمائة عالم ولهذا السبب كان على عاتق العلماء والمشائخ الناجين في هذه الموقعة عبء كبير في الحفاظ الجانب الفكري والعلمي: من استمرار المجالس العلمية، وإنشاء الحلقات الدراسية وغير ذلك. ومن أولئك العلماء الشيخ أبو القاسم البغطوري الذي صار: «يصل بهم مجلس الليل مجلس النهار، فيمد رجليه، فيقول: أذنوا أن أمد رجلي فان الكبير ذو عيوب، وكان له من العمر مائة وعشرون سنة».[4]

ومن خلال كل تلك الوسائط التعليمية المتعددة إمام طلاب العلم في جبل نفوسة اختار طل طالب ما يناسبه ويلائم ظروفه الاجتماعية والاقتصادية، للوصول إلى تحقيق أهدافهم العلمية والثقافية تدرجا في مراحل التعليم والتعلم.

1 - الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 294-295.

2 - سنتوت: من قرى جبل نفوسة؟، وحاليا من ضمن مدينة الرجبان، وصيغة الانتساب إليها الستنوتي، موقعها بالنسبة للشماخي هي : قصر يقع في قمة صخرة ضخمة يوجد بها مسجد، وهذا الموضع من أقدم المواقع بالجبل.

3 - الشماخي المصدر السابق، ص 246.

4 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 114.

4. المراحل التعليمية ومناهجها الدراسية:

تعد المؤسسات التعليمية: (مساجد، مدارس، مكتبات) هي اللبنة الأولى التي أسهمت بشكل كبير في تجدير وترسيخ الحركة العلمية في بداياتها خاصة وإبراز أهمية الثقافة والتعلم في المنطقة طيلة القرون الوسطى عموما. وكان التلاميذ والطلاب يجتازون ثلاث مراحل تعليمية وهي: مرحلة التعليم الابتدائي، فمرحلة التعليم المتوسط، ثم مرحلة التعليم العالي، وبين المراحل الثلاث تناسق وترابط من حيث المواد المدروسة لكل مرحلة ومناهجها.

ويشير الشماخي إلى تلك المراحل التعليمية: فيبدأ الطلبة بتعليم السير وآداب الصالحين، ثم ينتقلون إلى مراحل تالية ومتوسطة فيدرسون فيها قراءة القرآن واللغة العربية والإعراب، وأخيرا يصلون إلى المرحلة العالية ويدرس فيها الطالب علم الكلام وأصول الدين والمنطق.[1] وتلك المراحل التعليمية الثلاث شبهها العلماء والمشائخ، بعمل ثلاث نجارين الأول يقطع الأخشاب من الغابة، والثاني يشقها ثم ينشرها، والثالث يركب الألواح ويدق مساميرها، وأخيرا تكون في صورة شيء يصلح استعماله.[2] والعلوم التي ذكرت سابقا ليست هي فقط ما درسه طلاب الجبل في مراحل تعليمهم، وإنما هناك علوم أخرى سيأتي ذكرها.

ومن طرق التدريس المتبعة في مساجد ومدارس الجبل، التي هي نفس الطريقة المتبعة في اغلب مدارس مساجد العالم الإسلامي، وهي طريقة الإملاء، أي أن يملي الشيخ علي طلابه وهم يكتبون في كراريس خاصة بهم، ثم يقوم المعلم أو الشيخ بتصحيح ما كتبه التلاميذ.[3]

1) مرحلة التعليم الابتدائي:

وهي المرحلة الأساسية والأولى للتلاميذ، وحرص الآباء في ذلك العهد- كما هو في وقتنا الحالي- على أن يبدأ أولادهم التعليم في سن مبكرة، كما يقول الشاعر: (بسيط)

علم بنيك صغارا قبل كبرتهم *** إذ ليس ينفع بعد الكبيرة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت *** ولن تلين إذا قومتها الخشب.

وتتضح أهمية التعليم في الصغر من خلال تلك الأبيات، التي يرى ابن خلدون إنها

1 - الدرجيني، المصدر السابق، ص 397-398.
2 - الشماخي، المصدر السابق، ص 517.
3 - البغطوري المصدر السابق، ورقة 37.

فترة اشد رسوخا، وهي أصل وأساس لما بعدها من مراحل تعليم الإنسان.[1] ويتعرفون فيها مبادئ القراءة والكتابة، وغالبا ما تتراوح أعمار تلاميذ هذه المرحلة ما بين الخامسة والخامسة عشرة، وهي مرحلة الصبا، ويطلق على أستاذها معلم الصبيان، وكان أهالي الجبل يحرصون على تحفيظ القرآن الكريم لأبنائهم منذ صغرهم، وهذا ما تعارفت عليه اغلب بلدان العالم الإسلامي كما أشار لذلك ابن خلدون قائلا: «وعلن أن تعليم الولدان للقران شعار من شعائر الدين، اخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده... وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات».[2] وبذلك تتبين أهمية تعليم القرآن للصغار ليتربوا على تعاليمه، ويتخلقوا بأخلاقه الفاضلة، في تلك المرحلة التعليمية المبكرة، ومن اجل ذلك أنشأ عمرو ابن يمكتن مدرسته بالجبل لتحفيظ القرآن الكريم في وقت قل فيه المعلمون.[3] ويتم التعليم في هذه المرحلة في مختلف المساجد بقرى ومدن الجبل.

2) مرحلة التعليم المتوسط:

يبدأ الطالب هذه المرحلة المتوسطة من تعليمه بعد اجتيازه المرحلة الابتدائية بنجاح، وليس هناك سن محددة لولوجها وإنما هي مفتوحة للجميع، ويتم التعليم فيها بمختلف مدارس ومساجد الجبل، وغالبا ما تكون الدراسية في فترات المساء مثل ما يقوم به الشيخ أبو سهل البستوني مع طلبته بمسجد امسراتن حيث يبدأ في التدريس بعد صلاة العصر والى صلاة المغرب.[4] وبرنامج الدراسة يقتصر على الكتب المبسطة في اللغة والنحو والفقه والحديث والمنطق وغيرها، ومن بين الكتب الفقهية التي يدرسونها كتاب الوضع لأبي زكرياء يحيى الجناوني،[5] وكتاب ديوان العزابة الذي من اجل أن يكون سهل الحفظ على المبتدئين في دراسة الفقه[6] ومن الكتب اللغوية التي يدرسها الطلاب على سبيل المثال: كتاب جمل الزجاج في النحو، ومقامات الحريري، وكتاب الدعائم، والإشعار الستة، وكان بعض أغنياء البلد ومياسيرها يصرفون على الطلبة ما يحتاجونه من متطلبات وأحيانا يقوم المعلمون أنفسهم بذلك، وهذا يكون دافعا كبيرا للذين تكون حالتهم المادية صعبة لإتمام دراستهم وتعليمهم.

1 - ابن خلدون، المقدمة، ص 494.
2 - ابن خلدون ، المقدمة، ص 493-494.
3 - ابن سلام الإباضي، المصدر السابق، 126.
4 - الشماخي، المصدر السابق، ص 334.
5 -الشماخي، المصدر السابق، 551، والشماخي يذكره الجادوي، وأظنه تصحيفا من النساخ، لان كتاب الوضع ألفه أبو زكرياء يحيى الجناوني.
6 - الدرجيني ، المصدر السابق، ص 455-456.

3) مرحلة التعليم العالي:

وتعد هذه المرحلة هي أعلى مراحل التعليم في الجبل، ولم تكن هناك سن معينة لدخولها، وغالبا ما يصل إليها الطلاب الأذكياء والراغبون في مواصلة تعليمهم، والملاحظ إنها غير محددة بسنوات للدراسة، فقد ظل أبو هارون الجلالي، يتعلم عند الشيخ أبي القاسم البغطوري، مدة ثلاثين سنة.[1] ومكث ابن معبد الجناوني (ق 3هـ/9م)، يتعلم عند سعد أبي يونس الطمزيني، مدة عشرين سنة.[2] وكذلك ظل أبو يوسف مجدول التترغتي (ق 4هـ/10م)، في تعليمه على يد شيخه أبي محمد الكباوي (ق 4هـ/10م)، خمس عشرة سنة وبعد وفاة شيخه المذكور انتقل إلى الشيخ أبي محمد الدرفي (ق 4هـ/10م)، وتعام عنده مدة سبع عشرة سنة.[3] فالملاحظ أن فترات الدراسة في هذه المرحلة تطول سنين عديدة وذلك راجع إلى نوعية العلوم التي يدرسونها من ناحية، ومن ناحية أخرى للتخصص في اتجاهات علمية معينة، فكل ذلك يحتاج إلى دراسة التفصيلات بشكل موسع، ومناقشة المسائل على مستوى أمهات الكتب المعروفة لديهم حينذاك.

وكانت المدارس وكذلك المساجد هي الأمكنة التي يتعلم بها طلاب هذه المرحلة ومنها على سبيل المثال: مسجد ابناين الذي يعد مدرسة للتعليم العالي ومن أشهر من درس به الشيخ أبي الربيع سليمان بن أبي هارون التملوشايتي (ق 4هـ/10م)، وتخرج على يديه علماء كثيرين منهم: أبو زكرياء يحيى بن الخير الجناوني، الذي كان طالبا بتلك المدرسة ويقوم بالتدريس في نفس الوقت.[4] وأيضا من المدارس التي كانت على مستوى عال في التعليم هي مدرسة أبي موسى عيسى الطرميسي، ونهجت مدرسته نهجا فريدا بيم المدارس الأخرى بكونها تشجع الطلاب والمتميزين منهم على التأليف وعدم الاكتفاء بالرواية، وقد استجاب عدد منهم لتوجيه شيخهم، منهم على سبيل المثال: الشيخ أبو ساكن عامر ابن علي الشماخي الذي ألف كتاب الإيضاح في الفقه، والشيخ إسماعيل الجيطالي، صاحب كتاب قناطر الخيرات وغيرهما من المؤلفات لكلا الشيخين.

ومن ضمن العلوم التي تدرس في تلك الفترة هي: أصول الدين وعلم الكلام والمناظرة، والمنطق وغيرها. وفيما يتعلق بنماذج من الكتب التي تداولها طلاب المرحلة العليا: كتاب العدل في أصول الفقه للشيخ أبي يعقوب بن إبراهيم الورجلاني،[5] وكتاب مختصر ابن

1 - الشماخي، المصدر السابق، ص 278.

2 - البغطوري، المصدر السابق، 141.

3 - الجيطالي، المصدر السابق، ص 92.

4 - دبوز، المرجع السابق، ص 408.

5 - هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم بن مناد السدراتي الوارجلاني: ولد بمدينة وارجلان (500هـ/1106م) جنوب

محبوب (ت 260هـ/873م) في أصول الدين، وكان الطلاب يستعينون في مذاكرتهم وبحثهم في العلوم بمكتبات الجبل التي تزخر بأنواع التصانيف والمؤلفات ويبقون فيها لفترات طويلة للدراسة والتعلم.[1]

وبذلك يلاحظ الازدهار العلمي والثقافي لجبل نفوسة الأمر الذي جعله مركزا من مراكز العلم والحضارة في العالم الإسلامي، ومن ثم توجه طلاب العلم من مختلف المناطق المجاورة إلى الجبل للدراسة وطلب العلم.

5. الرحلة العلمية خارج الجبل:

يعد جبل نفوسة من ضمن بلدان العالم الإسلامي، وكانت تربطه بذلك المحيط الكبير علاقات مختلفة سيما الثقافية منها، وعلى ذلك شد بعض العلماء وطلاب العلم الرحال لأهم الحواضر الإسلامية، طالبين للعلوم والمعرف، وناشرين في نفس الوقت ما لديهم في هذا الحقل الإنساني. والبعض منهم بعد أن ينهي مهامه (معلما أو متعلما) يرجع إلى وطنه ليساهم في نهضته الفكرية، والبعض الآخر يتنقل بين عدة أماكن وفي النهاية يحط رحاله في مكان معين يتخذه مستقرا ومقاما وربما يتزوج في تلك البقاع وينجب أولاد فينتسبون لذلك المكان. وهناك تثمر إبداعاته وتنضج ويحن أكلها، بمعنى أن البعض من العلماء كان لجبل نفوسة دور التكوين والمخاض، والبقاع الأخرى تشهد مرحلة إنتاجهم وعطائهم. ولنا أمثلة كثيرة في هذا الصدد سيأتي الحديث عنها لاحقا.

وتعد رحلة الشيخ محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني[2] (كان حيا عام 160هـ/778م) إلى مدينة البصرة[3] بالعراق، أول الرحلات العلمية التي خرجت من جبل نفوسة. وتتلمذه هناك على يد الشيخ أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة[4] (ت: 145هـ/762)، فدرس

شرقي الجزائر، تعلم بها على يد مشائخها مثل: الشيخ أبي سليمان أيوب بن إسماعيل، وأبي زكريا يحيى بن أبي زكريا، وأبو عمار عب عبد الكافي التناوتي الوارجلاني، وتعده المصادر الإباضية من ابرز العلماء وخاصة في علم الكلام، وكان شغوفا بطلب العلم فشد الرحال إلى الأندلس وأقام بقرطبة متعلما، كما سافر إلى بلاد السودان في رحلة علمية وتجارية، ووصل إلى منطقة خط الاستواء، له عدة مؤلفات منها: تفسير القران الكريم، كتاب الدليل والبرهان، كتاب العدل والإنصاف، كتاب مرج البحرين،كتاب فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب، القصيدة الحجازية وغيرها من الكتب، ينظر محمد بابا عمي، المرجع السابق، ص 481-483.

1 - الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 445.

2 - لم تتوفر لدى معلومات حاليا حول المدة التي بقي فيها ابن مغطير بالبصرة طالبا للعلم، واسمه بالكامل هوة : محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني النفوسي، وليس كما ذكره الدكتور: صال مفتاح بأنه: محمد بن عبد الحميد مفيطر النفوسي الجذاوي، صالح مصطفى مفتاح، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، طرابلس، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1978م، ص 251.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 140.

4 - أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: من ابرز علماء الإباضية في المشرق وهو تلميذ الإمام جابر بن زيد.

عليه الفقه وغيرها من العلوم، وبعدما أنهى ابن معطير تعليمه بالعراق قفل راجعا إلى موطنه في حدود عام (135هـ/753م)، ونقل أساليب التعليم التي عرفها بالبصرة لنشرها بين سكان الجبل، وصار مفتيا إلى رجوع البعثة العلمية[1] لبلاد المغرب فسكت عن الفتوى.[2] وبذلك يكون ابن مغطير الجناوني هو رائد الرحلات العلمية في جبل نفوسة، «وتعد الرحلة من أعلى مراحل التعليم الإسلامي ـ وأسهمت بشكل كبير في توحيد ثقافة العالم الإسلامي».[3] ويبدو أن ابن مغطير كان يتمتع بمكانة علمية عالية في مجتمعه إلى درجة أن الإمام عبد الوهاب بن رستم (ت: 211هـ/829م)، أثناء تواجده بالجبل أوكل إلى ابن مغطير أن يحكم بين متخاصمين في حضوره.[4] وهذا يشهد على المستوى العلمي والفقهي الذي بلغه ابن مغطير الجناوني. وهذا ليس بغريب على شخص فقيه، وجاد. يرى فيه بعض الباحثين المعاصرين إلى انه: أول من جمع القرآن الكريم كله في جبل نفوسة وحفظه،[5] وفي الحقيقة لم أقف على هذه المعلومة في المصادر التاريخية وكتب السير والطبقات الإباضية المعروفة.[6]

ومن كبار علماء جبل نفوسة الذين فضلوا الرحلة لطلب العلوم ونشر الثقافة الإسلامية في ربوع المعمورة، الشيخ الجليل: لواب بن سلام الاغرميماني التوزري ق: (3هـ/9م)، يرجع أصله إلى قرية اغرميمان نشأ وتربى في أحضان عائلة تهتم بالعلم والثقافة، ومن مشائخه الذين تتلمذ عليهم في أول أمره الشيخ: أبي كبة التنكنيصي، ويبدو انه استقر في توزر[7] وهذا نفهمه من خلال اللقب الأخير (التوزري)، وكان عالما بالأصول الفروع

1 - البعثة العلمية وتتكون من أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري من : (اليمن)، وعبد الرحمن بن رستم، (أصله فارسي) من : القيروان، وإسماعيل بن داود الغدامسي من: (غدامس)، وأبي داود القبلي التفزاوي من: (نفزة) بالجنوب التونسي، وعاصم السدراتي من: (سدراته) غربي الاوراس، سافر هؤلاء الخمسة إلى البصرة من اجل طلب العلم، فتتلمذوا على يد الشيخ أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة، ومكثوا عنده خمس سنوات من (135هـ/752م- 140هـ/757م)، وهي أول رحلة علمية جماعية اتصل بها المغرب بالمشرق لنشر الثقافية العربية الإسلامية والفكرية الإنساني، ينظر : الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 6.

2 - الشماخي، المصدر السابق، ص 143.

3 - محمد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، القاهرة: دار الفكر العربي، 1982، ص 409. وللتأكيد على توحيد ثقافة العالم الإسلامي، والرموز التي ناضلت من اجل ذلك الهدف النبيل ستظل الأجيال القادمة تذكر دوما رحلة هذا العالم الليبي الذي قطع المفاوز والقفاز في ظروف شديدة الصعوبة من اجل المعرفة والثقافة.

4 -الوارجلاني، المصدر السابق، ورقة 26.

5 - احمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 133-134. صالح معيوف، المرجع السابق، ص 90، ليست هناك إحالة إلى مصدر معين لإثبات تلك المعلومة من قبل كلا الباحثين.

6 - كتب السير والطبقات التي اهتمت بتاريخ الجبل وعلمائه مثل: كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي بكر الوارجلاني (ق 5هـ/11م)، سير أبي الربيع الوسياني (ق 6هـ/12م)، وسير البغطوري (ق 6هـ /12م) وطبقات الدرجيني (ت 750هـ)، وسير الشماخي (ت 928هـ/1521م)، جواهر البرادي (ق 8هـ/14م).

7 - توزر: عاصمة بلاد الجريد وهي مدينة في أقصى افريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، وهي معمورة

كما اهتم بعلم الكلام، سافر للحج والتقى هناك بعلماء من عمان، له كتاب في السير والتاريخ ومسائل في الفقه والكلام وهو: (بدء الإسلام وشرائع الدين). كما يبدو أن ابن سلام قد أرسل خلف بن السمح، والتقى به في جندوبة (27هـ/884م). ونفهم من ذلك أهمية شخصية ابن سلام في الأحداث التاريخية وقتذاك، بالإضافة إلى كثرة أسفاره ورحلاته.

ومن علماء الجبل الذين شدوا الرحال من اجل طلب العلم ونشره بين الناس في مختلف الأوطان، الشيخ أبو الربيع سليمان بن زرقون التابديوتي النفوسي، ق: (4هـ/9م)، وهذا الشيخ الجليل من قرية تابديوت النفوسية، ودرس في تعليمه بقرى الجبل، ولما وفد الشيخ ابن الجمع من المشرق سافر بصحبته إلى توزر بتونس أولا، ثم رافقه إلى مدينة سجلماسة[1] فيما بعد، وخلال تلك الرحلات والتنقلات مع شيخه كان يجلس عند للتعلم. ومكث بسجلماسة حتى وفاة شيخه، فعاد إثر ذلك إلى قصطالية وعين مفتيا فيها. وكان شيخه معجبا به لكثرة علمه وذكائه، فأوصى له بجميع كتبه، وتصدير للتدريس فتخرج على يديه علماء كبار أمثال: أبو القاسم يزيد بن مخلد، وأبو خزر يغلي بن ولتاف، ترك ديوانا مشهور بديوان أبي الربيع.

ومن علماء جبل نفوسة الذين هاجروا إلى مدينة وارجلان، الشيخ أبو عمرو عيسى بن سجميمان النفوسي، ق(4هـ/10م)، وكان معاصرا للمؤرخ أبو الربيع الوسياني، وروى عنه في كتابه التاريخي: (سير أبو الربيع)،[2] بعض الروايات التاريخية، كما عاصر الشيخ العالم الكبير أبو الربيع سليمان بن زرقون التايديوتي وتلقى عنه بعض علومه.[3]

وهناك أسرة نفوسة لها شأن كبير في العلم والثقافة، وهي (أسرة بكر الفرسطائي)،

وأرضها سبخة، بها نخل كثير، وعليها سور مبني بالحجر والطوب، انظر، صالح باجيه، الإباضية بالجريد.تونس: دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، 1976، ص 9.

1 - سجلماسة: مدينة وسطة من حد تاهرت إلا أنها منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال، وهي قرية من معدن الذهب، بينها وبين ارض السودان زويلة ، انظر: ابن إسحاق الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد الحيني، مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1961، ص 34.

2 - سير أبي الربيع الوسياني: مؤلفه أبو الربيع سليمان بن عبد السلام ابن حسان بن عبد الله الوسياني، الذي لم يعرفنا للأسف بنفسه ، يرجع إلى بني وسيان من قبائل بني يفرن، وهو يعد من علماء ومؤرخي الإباضية المشهورين خلال القرن (6هـ/12م)، وكتابه في السير والمناقب، ومعروف بسير الوسياني، كما يمكن أن يصنف ضمن كتب الفقه ، وبالاطلاع على المخطوط تبين انه يحتوي على ثلاث أجزاء يبدأ كلا منها بمقدمة وينتهي بخاتمة. للمزيد انظر : سعد زغلول عبد الحميد، هامش على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب (دراسة لكتاب السير)، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ج1، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، 1979، ص 53-91.

3 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة؟

وترجع أصول هذه الأسرة إلى قرية فرسطا، واختارت الرحيل والهجرة من الجبل على ما يبدو في (أوائل ق: 4هـ/10م) إلى الجنوب التونسي ومنه الاستقرار بالجنوب الجزائري، (بلاد اريغ)، ومن أفراد تلك العائلة جدهم: بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي ق: (4هـ/10م)، الذي تلقى تعليمه أولا بجبل نفوسة على يد الشيخ سليمان بن ماطوس الشروسي، ثن رحل من الجبل واستقر باريغ من أعلامها وفقهائها الكبار، ويذكر المؤرخ أبو الربيع الوسياني: أن للشيخ بكر عدة مسائل فقهية وله حكم وفتاوى تحويها بطون الكتب.[1] أنجب ولدا سيكون من أقطاب العلماء وابرز المصلحين والمفكرين، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد الفرسطائي.

ومن العلماء الذين هاجروا من الجبل وذاع صيتهم في الأفاق، الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي ولد: (345هـ/956م)، بقرية فرسطا، أي قبل رحيل والده من الجبل، وفي تلك القرية تلقى تعليمه الأول، ثم اخذ في التنقل والترحال بين القرى والمدن طالبا للعلم، فمن القيروان إلى جربة فالحامة، وفي كل حضاري أقام فيه نهل منه ما يروي عطشه الثقافي والفكري، ففي الأولى اخذ علم اللغة العربية (الإعراب والنحو)،[2] والمنطق، وفي الثانية اهتم بعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير وغيرها، متتلمذا على يد الشيخ أبي زكريا فصيل بن أبي مسور، وفي الأخيرة جلس إلى شيخه أبي نوح سعيد بن زنغيل. ثن ثم سافر إلى قصطيلية عازما الأخذ عن الشيخ أبي عمران موسى بن زكريا، إلا أن الوفد القادم من جربة أقنعه بضرورة التفرغ لتأسيس نظام العزابة،[3] وبالفعل قام بهذه المهمة خير قيام وهي التي جعله كثير الأسفار والتنقل في بلاد المغرب من جبال نفوسة شرقا إلى وادي ميزاب[4] غربا، ومن المناطق التي استقر بها

1 - المصدر نفسه، ورقة ؟

2 - يورد المؤرخ الوسياني في هذا الصدد رواية تبين كيف وصل أبو عبد الله إلى القيروان، والطريقة التي استقبل بها قائلا: «توجه....إلى القيروان يتعلم الإعراب والنحو، فقصد مؤدبا يعلمه قبل ذلك/ فقال له المؤدب أوصى بك إلى مؤدب أعلى مني في هذا الباب، فكتب إليه كتابا... ودخل أبو عبد الله محمد فسلم إلى المؤدب الكتاب، ووقف أبو عب

الله بعتبة الباب، فصار المؤدب يقرأ الكتاب حتى سمع أبو عبد الله قول السلام عليكم خاتمة الكتاب، فدخل أبو عبد الله فسلم على المؤدب، فوجد أبو عبد الله صبيانه يتعلمون في علة العلل» للمزيد انظر: أبو الربيع الوسياني، المصدر السابق، ورقة 65.

3 - نظام العزابة : يعد الشيخ أبو عبد الله محمد الفرسطائي المؤسس لنظام العزابة وهو نظام تربوي» (ديني اجتماعي)، وجاء تأسيسه بناء على طلب من شيخه أبو زكرياء فصيل بن مسور، ويسير نظام العزابة وفق قوانين وأنظمة صارمة، ومعنى العزابي: من العزوب عن الدنيا والإقبال على الآخرة، وحلقات العزابة مقسمة إلى ثلاث مجموعات وهي: الاصاغر والأواسط والأكابر.

4 - وادي ميزاب: يقع في جنوب الجزائر (اليوم وفي شمال الصحراء الكبرى في ناحية تسمى الشبكة وهي منطقة جميلة تتخللها الأودية، وتبعد ميزاب عن العاصمة الجزائر حوالي 600 كلم، ويتكون الوادي من سبع مدن

لتعليم الناس أمور دينهم ولنشر الثقافة والمعارف: جبل نفوسة، طرابلس، لماية، جربة، تين يسلي، قصطالية، تفاجالت، وادي اريغ، وغلانة، قنطرارة،[1] وارجلان، بادية بني مصعب، ولهذا عرف بين العامة (بسيدي محمد السائح)، ومن الأعمال التي أنجزها بناؤه مسجد بقريته فرسطا بجبل نفوسة، محاوراته لفرقة السكاكية، جهوده الإصلاحية لقبيلة بني وزمار، وله تلاميذ عديدون في مختلف البلدان ونذكر أبرزهم على سبيل المثال: زكريا ويونس أبناء أبي زكريا بن فصيل، وابنه أبو العباس احمد، وأبو بكر بن يحيى، ويعقوب بن يعدل، ومصالة بن يحيى، وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، وتذكر المصادر التاريخية انه خلف عدة مؤلفات، فيقول أبو زكريا الوارجلاني: «وله في كل فن تأليف كثيرة»،[2] كما أكد هذه المعلومة كل من الدرجيني في كبقاته، والشماخي في سيره.[3] غير أنهم أشاروا للموضوعات التي اهتم بها، وهي: «وأكثرها الحجج والبرهان»،[4] واغفلوا عن ذكر عناوين تلك الكتب ولو البعض منها، إلا أن المتصفح لكتب التراث الإباضي يلاحظ إنها مليئة بآرائه وأفكاره وفتاويه.

ويعد الشيخ أبو يعقوب يوسف بن نفاث التيميجاري النفوسي (ت: 440هـ/1049م) من العلماء الذين شدوا الرحال خارج الجبل للاستزادة في العلم ونشره في البلدان والأقاليم، ونلاحظ انه استقر ببلاد اريغ[5]، وتشهد له المصادر التاريخية انه كان شيخا فقيها عالما، وكانت له مراسلات علمية مع غيره من العلماء، وله فتاوي كثيرة في بطون الكتب والمؤلفات، وعاصر علماء كبار أمثال: الشيخ سعيد بن زنغيل، وأبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي، وتبوأ بينهم مكانة علمية رفيعة وكانوا يرجعون إليه في المسائل الصعبة.[6]

كما نشير إلى الشيخ إبراهيم بن مطكوداسن أبي إبراهيم بن يخلف بن مالك

وهي: العطف، وبنورة، وملكية، وبني يزقن، وغرداية، وبريان، والقرارة، ولفظ ميزاب يعني: اسم آلة، وزوب الماء: أي انحداره وانصبابه كالميزان آلة الوزن، جرى تسمية أهل القرى السبع ببني ميزاب وذلك نسبة إلى ميزاب الكعبة www. Google.Com..

1 - قنطرارة: يرى الشيخ سليمان الباروني أن قنطرارة هي تيجي الحالية؟، بينما يرى صالح باجيه أن قنطرار أو قنطرارة هي بنفطة (شرقي درجين)، ببلاد الجريد التونسي، هاجر إليها عدد ن إباضية جبل نفوسة بعد معركة مانو وازدهرت فيها الحركة العلمية، وبقيت زمنا مقصدا للعلماء إلى أواسط ق: 5هـ/11م).

2 - أبو زكريا الوارجلاني، المصدر السابق؟، ورقة؟

3 الدرجيني ، المصدر السابق، ج2، ص377؛ الشماخي المصدر السابق، ص

4 - الدرجيني، المصدر السابق، ص 377.

5 - بلاد اريغ: تقع اليوم ضمن نطاق الجمهورية الجزائرية.

6 - معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، ص 494.

الدجمي الغرماني ق: (5هـ/11م) أصله من قرية تغرمين[1] بجبل نفوسة، ومن هناك رأى الرحيل ناحية الغرب ويبدو أن أول استقراره كان ببلاد اريغ ثم انتقل إلى قرية تين ماطوس بالقرب من وارجلان، اخذ علومه على عدة مشائخ من أبرزهم: الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف (ت:471هـ/1078م)، وكان مهتما بالتاريخ ورواية السير، روى عنه المؤرخ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر. ويرى المؤرخ أبي الربيع الوسياني أن إبراهيم الغرماني واحد من العلماء الذين اشتركوا في تأليف ديوان العزابة المشهور، بعد وفاته ترك مكتبة كبيرة تحوي العديد من المؤلفات والمصنفات، قدرت بحوالي أربعين مخلاة، أوصى بها جميعها للشيخ أبي العباس احمد الفرسطائي.

ومن العلماء الذين ترجع أصولهم لجبل نفوسة إلا أن ظروف الزمان جعلتهم يضربون في الأفاق، الشيخ أبو العباس احمد بن محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي، ق: (5هـ/11م)، وهو سليل بيت العلم والحكمة، أصوله ترجع إلى فرسطا، إلا انه عاش اغلب حياته في وارجلان لاستقرار والده بها، واخذ علومه على والده وكذلك على الشيخ أبو الربيع سليمان المزاتي وأبي محمد ويسلان، وسعد بن يفاو. ويبدو انه سافر لجبل نفوسة قصد التعلم حيث يذكر: انه جلس في مكتبة (خزانة نفوسة) ووجد بها كتب كثيرة، تفوق الثلاثة وثلاثين ألف كتاب[2] -هذا الرقم للكتب التي جاءت من المشرق فقط، ناهيك عن الكتب الأخرى فالمكتبة تحوي كتبا يفوق بكثير هذا الرقم المذكور- وقام بمهام التدريس ودرس عليه تلاميذ كثيرون منهم: أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي، وصالح بن افلح، وأبو عبد الله بن محمد النفوسي، ويحيى بن زكريا، وعبد السلام بن عبد الكريم، وابنه إسحاق بن أبي العباس، وغيرهم كثيرون. واهتم الشيخ أبو العباس بتأليف الكتب سوف نذكرها في الفصل الثالث في مبحث الإنتاج العلمي. توفي في قرية تصوانت باريغ، وذلك يوم الخميس من شهر ذي الحجة من عام (504هـ/1111م).

كما نذكر احد الشيوخ الذين ترجم أصولهم إلى جبل نفوسة، وهو الشيخ يخلف بن يخلف التيميجاري النفوسي ق:(6هـ/12م)، المنتسب إلى قرية تيميجار[3] ورحل منها

1 - قرية تغرمين: من قرى جبل نفوسة (وهي حاليا في الزنتان)، وحدها من قصر شماخ شرقا إلى وادي متلالة (وادي الآخرة) غربا، ومن الشمال إلى مل يعرف ارض الطابو، وتغرمين: جمع توغرمت، وتوغرمت تعني: القصبة أو القصر أو القرية؟، ومن هنا يمكن أن نقول أن تغرمين هي مجموعة قرى، رواية شفوية، الأستاذ أمحمد البوجديدي، طرابلس، 2008/1/26م.

2 - الدرجيني المصدر السابق،ج2، ص 445.

3 - تيميجار : من مدن الجبل القديمة (أولاد أبو جديد حاليا) تقع في صدر الجبل من الجهة الشمالية شرقية لوادي امسين، ومن الغرب يحدها مجرى وادي امسين، ومن الجنوب قرية امرساون والكرومة، ومن الشمال منطقة أولا أبو جديد الحديثة، من معالمها التاريخية مسجد الشيخ علي بن يخلف التيميجاري، وقصرا: المالطي وأولاد أبي

إلى بلاد الجريد[1] (بتونس)، وهو فقيه، وقاض، ونسابة. -وهو جد المؤرخ المشهور الشيخ: أبي العباس احمد بن سعيد الدرجيني- تعلم على مشائخ اريغ ووراجلان أمثال: الشيخ أبي سليمان أيوب بن إسماعيل بوارجلان. وكان فقيها بارعا واشتغل بالقضاء، ويبدو انه كان مهتما بالزراعة والفلاحة ويمتلك جنان في نفطة يتقوت منه، وفي نفس الوقت كانت له حلقة علمية يقيمها للطلاب في ذلك الجنان.

وبعد الشيخ علي بن يخلف بن يخلف التيميجاري ق: (6هـ/12م) من أعلام الجبل الذين عاشوا خارجه بسبب رحيل العائلة التيميجارية إلى بلاد الجريد التونسي، ويبدو أن استقراره كان بدرجين،[2] وسيأتي الحديث عن هذه الشخصية في الفصل الرابع ودوره في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية ببلاد السودان الغربي.

وكذلك من أفراد عائلة التيميجاري الراحلين من جبل نفوسة إلى بلاد الجريد (بتونس)، الشيخ سليمان بن علي بن يخلف التيميجاري ق: (6هـ/12م)، وكما هو معلوم أن هذه الأسرة (التيميجارية)، بعد رحيلها من الجبل استقرت بكنومة وهي من قري تقيوس[3] بوادي اريغ بالمغرب الأوسط، أما الشيخ سليمان فقد حط رحاله بقرية نفطة،[4] ومنها انتقل إلى درجين ومنها اخذ في التنقل والترحال لطلب العلم والمعرفة فسافر إلى وارجلان وجلس للتعليم عند الشيخ أبي سليمان أيوب بن إسماعيل اليزماتي المزاتي، كما التقاء بكبار علماء وارجلان وقتئذ، منهم: الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني، وأبي عمار عبد الكافي، وأبي عمرو عثمان السوفي، وتتلمذ عليهم، وكان اهتمامه بتعلم علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية، كما كان شاعرا مفوها، والى جانب أشعاره التي تركها ترك معها مؤلفات في علم الكلام والفقه. ومن خلال تنقلاته بين بلدان المغربين الأدنى والأوسط قام بمهام التدريس وتعلم عنده تلاميذ عديدون.

ومن علماء الجبل الذين رحلوا خارج حدوده الشيخ أبو جعفر مسعود ألزناتي (ت:

جديد: زرتها عام 2004.

1 - بلاد الجريد: ويشمل مدينة توزر وضواحيها، ونفطة وضواحيها، قنطرار، الحامة، سدادة، تقيوس، وهو تقريبا المفهوم الذي يطلقه البكري على (قسطيلية)، وهو في سهل مستطيل بين شط الجريد، (سبخة تاكمرت)، وشط الغرسة.وهو مجموعة من الواحات الجميلة يسميها الإباضية (القصور) أو بلاد قسطيلية، وكانت عاصمتها الإباضية تسمى (قنطرار) أو (قنطرارة)، للمزيد انظر: صالح باجيه، المرجع السابق، ص6.

2 - درجين : مدينة من ضمن مدن بلاد الجريد الواقعة في الجنوب التونسي.

3 - تقيوس، بالفتح ثم بالسكون، وباء مضمومة ، وواو ساكنة، وسين مهملة» مدينة بافريقية قرية من توزر، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 37.

4 - نفطة: تلي بلدة توزر في الأهمية، وكانت تعرف بثغر الصحراء وهي مدينة بافريقية من أعمال الزاب الكبير وأهلها شراة إباضية ووهبية، المصدر السابق، ص 304.

563هـ/1167م) وهو من فساطو. رحل مع أخيه الحاج محمد سنة (470هـ/1084م) إلى الجنوب الجزائري (وادي ميزاب) وقام بمهام التدريس والتعليم في كل من: العطف (لمدة سنتين)، ثم استقر بغرادية وكان يذهب يوميا لقرية مليكة للتدريس. وفي سنة (485هـ/1092م) خلف الشيخ أو عيسى في المشيخة العلمية والاجتماعية والسياسية لبلدة مليكة.[1] ويرجع (بني ويرو) في ميزاب إلى الشيخ مسعود ألزناتي. وفي الفترة التي غاب فيها الشيخ مسعود تولي أخوه الحاج ألزناتي تسيير شؤون غرادية فسار بين الناس بالعدل والمساواة، وكان له حلقة يلقي فيها دروسه بالعطف وغرادية.

ومن نفس العائلة التيميجارية الراحلة من جبل نفوسة، الشيخ أبو العباس احمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني التيميجاري (ت: 670هـ/1270م)، ينحدر من أسرة نفوسية كانت تقطن بقرية تيميجار ثم هاجرت إلى الجنوب التونسي، عندما نزح جده الأعلى يخلف بن يخلف التيميجاري إلى بلاد الجريد وأقام في نفطة، ثم انتقلت الأسرة زمن والد احمد، سعيد بن سليمان إلى درجين وفيها نشأ أبو العباس احمد واليها ينسب[2] وفيها تلقى علومه أولا ثم رحل إلى وارجلان سنة (616هـ/1219م)، متتلمذا على الشيخ أبي سهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان، ثم رجع إلى موطنه درجين، وبعد أبو العباس الدرجيني من الفقهاء، واهتم بالتاريخ والسير وألف كتاب: (طبقات المشائخ بالمغرب)،[3] كما كان شاعرا، وله قصائد كثير، منها: (أجوبة، والغاز)، وقام احد علماء قرية جيطال وهو الشيخ أبو طاهر إسماعيل الجيطالي بجمعها في كتابه: الفرائض والحساب.

ومن الذين قاموا برحلة علمية الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الابديلاني النفوسي، ق: (6هـ/12م)، ويرجع أصله لقرية إبديلان من قرى الرحيبات، ونشأ في أسرة ضيقة الحال، يبدو انه تعلم على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي

1 - معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق، ص 415.

2 - الحبيب الجنحاني، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، بيروت: دار الطليعة، 1980، ص 93-94.

3 - كتاب طبقات المشائخ بالمغرب» مؤلفه أبو العباس احمد بن سعيد الدرجيني، ترجع أصول أسرته إلى قرية تيميجار بجل نفوسة، ولقب الدرجيني نسبة إلى درجين في بلاد الجريد قرب نفطة، ويعد من أشهر مؤرخي الإباضية وألف كتابه الطبقات هذا بناء على طلب من إباضية المشرق ليتعرفوا على أحوال إباضية المغرب، قام إبراهيم طلاي بتحقيق الكتاب ونشره في جزئين: الأول يعرض فيه الدرجيني: تاريخ الإباضية في المشرق والمغرب، والثاني رتب فيه علماء الإباضية حسب تسلسلهم الزمني في اثني عشر طبقة.

(ت: 440هـ/1049م) الذي شجعه على إتمام علومه في وارجلان[1] فتوجه إليها وتعلم على بعض شيوخها منهم: الشيخ محمد بن بكر المذكور، وابنه أبو العباس احمد (504هـ/1110م)، ومن زملائه في طلب العلم هناك محمد بن غمرة، ودرس في غيران بني أجاج قرب وارجلان، واهتم بدراسة الفقه وغيره من العلوم الدينية[2] وفي إقامته بوارجلان طلب من أستاذه الشيخ أبي العباس الفرسطائي تأليف كتاب، فلبى طلبه بتأليفه كتاب : أبو مسألة. يبدو انه كان ناشطا ثقافيا حيث كانت له أسئلة فقهية أجاب عنها احد علماء وارجلان وهو الشيخ أبا يعقوب يوسف بن إبراهيم الوراجلاني (500-570هـ/1106م-1176م).

من خلال ما تقدم تبينت لنا أهمية جبل نفوسة العلمية، وكيف نبغ فيه عدد من علمائه- وسنتعرف عليهم بشكل أوسع في الفصل الثالث- وكما أدركنا دورهم الثقافي والفكري في المناطق المجاورة، وبذلك يمكن أن نقول أن الجبل في العصر الوسيط كان يعد من المراكز الحضارية الإسلامية ومن هنا صار قبلة علمية يتوجه إليها طلاب العلم من مختلف البقاع.

1 - وارجلان : مدينة تقع في الجنوب الجزائري وكانت تربطها علاقات ثقافية بجبل نفوسة .

2 - معجم أعلام الإباضية، ص 378.

6. طلاب من خارج جبل نفوسة:

نتيجة لانتشار المساجد والمدارس التي أسهمت في نشر العلم في الجبل صار قبلة ومنارة علمية، فقصده الطلاب من مختلف المناطق المجاورة. كما أشار إلى ذلك أبو العباس الفرسطائي متحدثا عن احد الطلاب الذين درسوا في مدارس الجبل وهو يوسف ين يعقوب بن تميال الذي يقول: «وكنت بجبل نفوسة أقرأ عند وارسفلاس من أهل ويغو».[1]

وهناك بعض طلاب العلم من جعل جبل نفوسة مكانا علميا يقصده في أوقات يحتاج فيها إلى المزيد من طلب العلم، وهذا ما يلاحظ مع أبي الخير الزواغي، ويرجع أصله إلى زواغة[2]. وعندما يكون مع أهله يضع السكين في مكان معين من البيت، وعندما يلاحظ تراكم الصدأ على السكين يسافر إلى الجبل لحضور حلقات العلم، ويقول: «هكذا قلبي».[3] فلكي يزيل ما تراكم على قلبه من هموم الدنيا وشواغلها. فإذا ما فكر في طلب العلم لم يجد أفضل من جبل نفوسة يسافر إليه ويحقق مطلبه.

ويشير الدرجيني إلى عالم من ابرز علماء جزيرة جربة قائلا: «كان أبو مسور[4] أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم والفضل، وكان تعلمه بجبل نفوسة، قرأ على أبي معروف وأبي زكرياء يحيى بن يوسف السدراتي رحمهما اله، وكان حينئذ مقلا من المال... فضاعف الاجتهاد ولازم القراءة حتى حصل من العلم ما قدر له، لما أراد المسير إلى أهله اشتغل باستنساخ الكتب».[5]

ويفهم من هذا النص أن أبا مسور أو والده فضل جبل نفوسة لتعليم ابنه دون أي مكان آخر، وهذا دليل على ازدهار الحياة العلمية في الجبل، من حيث كثرة العلماء،

1 - أبو العباس الفرسطائي، الألواح، مخطوط، ورقة 75، مكتبة الأستاذ أيوب محمد، ايجناون، بدون تصنيف.

2 - زواغة: بلدة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس ينجو 72 كلم تقريبا، وهي قريبة من البحر الأبيض المتوسط، وسميت باسم قبيلة ليبية، لم يذكرها المؤرخون العرب عند الفتح الإسلامي، ووصفها الرحالة التيجاني بأنها مدينة ضخمة وبها نخل كثير، ومدح أهلها،كما أشار إلى وجود أثار قديمة، ينتظر: التيجاني، المصدر السابق، ص 212-211.

3- الفرسطائي، المصدر لسابق، ورقة 93.

4 - أبو مسور يسجا بن يوجين اليهراسني: يرجع إلى قبيلة بنو يهرامسن التي كانت تقيم ما بين مطماطة وجبل نفوسة، أي على الحدود الليبية التونسية حاليا. درس في جبل نفوسة، وكان طالبا فقيرا معدما، فأمر شيخه ويدران بن جواد أهالي نفوسة من يتكفل بمؤنته، وبذلك تفرغ لطلب العلم، وكان من المجتهدين، كما تتلمذ على الشيخ زكرياء يحيى بن يونس السدراتي الونزيرفي على ما يبدو في قرية ونزيرفي بجبل نفوسة. ينظر» سالم بن يعقوب، تاريخ جزيرة جربة، تونس :دار الجويني للنشر، 1986، ص 70-74.

5 - الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص 157-158 . ويبدو أن لهذا التكوين العلمي لأبو مسور وانتساخه للكتب في بيئة الجبل المزدهرة ثقافيا، سيكون له اكبر الأثر في جزيرة جربة من الناحية الثقافية والعلمية حيث ستكون إقامة أبو مسور، وتأسيسه مدرسة بحومة الحشان.

وانتشار المساجد والمدارس التي تعتني بالتعليم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أبا مسور عقب إكماله التعليم بالجبل وعزمه للرجوع إلى أهله اخذ ينسخ الكتب، وهذا ما يشير إلى احتواء الجبل على الكثير من الكتب، وان هذه الثروة العلمية هي التي ستشكل فيما بعد النواة الأولى للحركة العلمية في جزيرة جربة.[1] وبالفعل عندما استقر أبو مسور في جربة قام بتأسيس جامع ومدرسة[2] في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بفضل هذا الجامع والمدرسة دخلت الجزيرة طورا مجددا من أطوار تاريخها.[3]

وهذه إشارة إلى الإشعاع العلمي والثقافي لجبل نفوسة من حيث كونه مركزا من مراكز الحضارة الإسلامية في بلاد الغرب الإسلامي. وإذا كانت هذه أهمية جبل نفوسة في تلك العصور بالنسبة لجزيرة جربة فما مدى صحة ما يراه احد الباحثين المعاصرين الذي يقول: «ونحن لا نبالغ إذ نقول إن جربة كانت تمثل بالنسبة للجنوب التونسي ولجبل نفوسة وللجريد، ما كانت تمثله مدينة القيروان بالنسبة لافريقية من حيث الإشعاع الثقافي والفكري.[4]

ومن ضمن الطلبة الذين رحلوا إلى الجبل وأقاموا فيه لمواصلة تعليمهم العالي، أبو محمد ويسلان بن يعقوب المزاتي، الذي بدأ تعلمه في موطنه عند الشيخ أبي القاسم يزيد بن مخلد، ولما عزم على مواصلة دراساته العليا، رأى السفر إلى الجبل وهذا يشير إلى أن الجبل بلغ درجة عالية من التعليم، وأشار إلى ذلك الشماخي قائلا: «وأراد استكمال العلوم والعلو إلى أعلى المراتب، فاستأذن أمه في الطلوع إلى الجبل... وأقام بالجبل سبع سنين، وحصل ديوانا عظيما فكان يقرأ فيه ويدرسه.[5] كما درس الشيخ القاسم البرادي الدمري، الذي يرجع أصله إلى جبل دمر بالجنوب التونسي، في مدارس جبل نفوسة،

1 - فرحات الجعبيري، ملامح عن الحركة العلمية عند الإباضية بجربة ، أعمال الملتقى حول تاريخ جربة، :جمعية صيانة جزيرة جربة، 1982، ص 26.

2 مدرسة الجامع الكبير: بعد أن أنهى الشيخ أبو مسور ايهراسني دراسته وتعليمه بجبل نفوسة سافر إلى جزيرة جربة، وأسس هذه المدرسة في حومة الحشان في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وأصبحت فيما بعد جامعة علمية قصدها الطلاب من جميع الأنحاء عملت على نشر العلم ونور المعرفة في ربوع الجزيرة، قصدها الشيخ إسماعيل الجيطالي وأقام بها مدرسا إلى أن وافته المنية هناك وقبره بجوارها، زرتها يوم الأحد 2004/2/2، أول أيام عيد الأضحى المبارك، ينظر الصورة رقم (29)

3 - - محمد قوجة، الأبعاد الحضارية الجامع أبي مسور في جربة، جربة: جمعية صيانة جزيرة جربة، 1995، ص 78.

4 - المرجع نفسه، ص 78.

5 - الشماخي، المصدر السابق ص 377.

وتحديدا على يد الشيخ عام الشماخي.[1] بمدرسة المعانيين بيفرن، وبعد تخرجه عاد إلى وطنه، وصار من العلماء الكبار، وله عدة مؤلفات منها: الجواهر المنتقاة فيما اخل به كتاب الطبقات،[2] وكتاب البحث الصادق، ورسالة الحقائق، وكتاب الاستكشاف عن الحقائق أسرار معاني، وكتاب الإنصاف والعدل، وجواب لبعض أهل الخلاف، ورسالة فيس تقييد كتب أصحابنا، وفتاوي وأجوبة، وشرح الطهارات، ورسالة في كيفية إنفاق أوقاف المساجد وغيرها، وترأس نظام العزابة في جربة بعد وفاة شيخه يعيش بن موسى الزواغي.[3]

هكذا تبين مدى ازدهار النشاط التعليمي في مختلف مراكز الجبل التعليمية، وبوفود الطلاب من شتى الأقطار، ونهلهم من معين العلم، إلى جانب طلاب الجبل، وبلغ معظمهم أعلى المراتب العلمية ليتصدروا مناصب دينية واجتماعية، بشهادة واجازة علمائهم ومشائخهم.

1 - المصدر نفسه، ص 560.

2 - كتاب الجواهر المنتقاة في إتمام ما اخل به كتاب الطبقات لمؤلفه أبي القاسم ابن إبراهيم البرادي الدمري أصله من جبل دمر بتونس، كان حيا في عام 810هـ/1407م، وسبب تأليف كتابه: هو إتمام ما رآه ناقصا في كتاب طبقات المشائخ، للشيخ أبو العباس احمد الدرجيني كما جاء على لسان المؤلف في مقدمة كتابه: «فاني رأيت كتاب الطبقات ضالة عز ناشدوها ومنشدوها ومنهلا عذبا... وفيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين إلا انه غفل عن ذكر الصدر الأول واخل بذكر ما عليه المعول...فجمعت في ذلك من أثار أصحابنا وغيرهم كتابا سميته بالجواهر المنتقاة في إتمام ما اخل به كتاب الطبقات» . ينظر الجواهر المنتقاة، لأبي القاسم البرادي، طبعة حجرية، ص 3-4.

3 - محمد قوجه، المرجع السابق، ص 87.

7. الإجازات العلمية:

إن نظام الإجازة العلمية المعروف في التعليم بمختلف مناطق وبلدان العالم الإسلامي، وهو أن الأستاذ أو الشيخ يجيز لأحد الطلبة بصلاحية التعليم للآخرين، وذلك بعد ما يثبت الطالب أهليته التامة لأي فرع من فروع العلم، فهل كان هذا النظام معمول به في جبل نفوسة؟.

إن المصادر التاريخية (السير والطبقات) التي تناولت سير العلماء وترجمهم، لم تهتم كثيرا بمسألة الإجازات العلمية ولم تتحدث عنها بصراحة ! وبذلك فان الباحث يجد صعوبة في إثبات ذلك الأمر، إلا من خلال التلمس في بطون الكتب لاستنباط الأفكار من الروايات التاريخية، يورد بعض المؤرخين رواية مفادها: أن أبا ذر أبان بن وسيم بعدما أنهى تعليمه عند شيخه أبي خليل الدركلي الذي أجاز له الفتوى، قال له: يا أبان أفت للناس، وأنت نذير زمانك يا أبان.[1] فهذا الأمر يتضمن الإجازة بالفتوى وهي أعلى مراتب التمكن من العلم، غير أن المصادر لم تذكر تفاصيل هذه الإجازة، ما إذا كانت مكتوبة أو لا؟ أو ما هو العلم المجاز فيه؟ والمرجع أن العلم هو علم الفقه لأنه العلم الذي كثيرا ما تقع فيه الفتوى، وهذا ما لوحظ في المصادر أن أبان اغلب فتاويه فقهية.

كما أن البغطوري يورد رواية مفادها أن عمروس بن فتح المساكني سافر إلى المشرق للحج، وحضر مجلس علم للشيخ محمد بن محبوب،[2] وقام عمروس بسؤال ابن محبوب، وعندما عرفه الأخير قال له: «أنت أولى بهذا الموضع فنزل له عن المنبر فرجع هو عليه، وقعد ابن محبوب قدامه، فجعل عمروس يفتي للناس».[3]

وعلى الرغم من وقوع هذه الحادثة خارج الجبل، إلا أن المجاز له بالفتوى والتدريس من علماء الجبل، وكذلك فان الرواية لن تتحدث عن الإجازة صراحة إلا أن معناها يدل على ذلك. كما أن زورغ الارجانية إحدى عالمات الجبل، التي قالوا فيها: «الشطر لها كثير،

1 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 6؛ الدرجيني، المصدر السابق، ص 301-304؛ الشماخي، المصدر السابق، ص 215.

2 - هو أبو عبد الله محمد بن محبوب بن الرحيل بن هبيرة القرشي وهو من علماء الإباضية بالمشرق العربي، كان يقيم بمكة المكرمة، ثم انتقل إلى عمان، له إسهام كبير في نشر العلوم، ينسب إليه كتاب: سيرة محمد بن محبوب إلى أهل المغرب، ومختصر ابن محبوب، وكتاب في الفقه في سبعين جزءا، توفي بعمان في صحار عام (260هـ/873م) ينظر: البرادي، المصدر السابق، ص 218.

3 - البغطوري، المصدر السابق، ورقة 131، الوسياني، المصدر السابق، ورقة 3-4.

والثلث قليل».[1] هذه الشهادة لزورغ من علماء عصرها هي بمثابة إجازة علمية، إلا إنها لا تفصح كثيرا عن التفاصيل، فمادام يشهد لها العلماء بالثلث، والمقصود به ثلث العلم كما أشار لذلك المؤرخ أبو الربيع الوسياني: « قالوا معها [زورغ] ثلث علم الجبل».[2] يتضح إنها كانت تتقن الكثير من فروع العلم.

وكان منصب الإفتاء لا يتصدره إلا من بلغ درجة عالية في العلم بشهادة كبار العلماء، وقد أجاز احد العلماء وهو أبو زكرياء ابن أبي عبد الله،[3] لأبي هارون التملوشايتي بالإفتاء.[4] ذلك المنصب الخطير، والإجازة للإفتاء هي ضمنا تسبقها إجازة علمية استحقها أبو هارون لعلو علومه وقوة حجته.

كما يلاحظ عبارة كثيرا ما تتكرر في المصادر الإباضية عندما تترجم لأحد الشخصيات العلمية وهي: (وجازت عليه نسبة الدين)[5] وكلمة (جازت) أي هناك من أجازه ليقوم بمهام التدريس والإفتاء، ومن أمثلة ذلك مال ذكره أبو العباس الشماخي: «ومنهم أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتي... وهو ابن سبع وعشرين سنة وقد جازت عليه نسبة الدين».[6]

والملاحظ أن إجازة العلماء لطلابهم، وإجازة هؤلاء الطلاب لتلاميذهم فيما بعد عندما يصبرون أساتذة، الأمر الذي ترتب عليه وجود سلسلة إسناد علمية طويلة فيما بين الأجيال، ذكرها الشيخ عبد الله الباروني وهي تبدأ مع: «الشيخ عامر الشماخي عن الشيخ أبي موسى عيسى الطرميسي عن الشيخ يحيى ابن وجدليش، عن أبي يحيى زكرياء بن إبراهيم الباروني، عن أبي يوسف وجدليش الامليلي، عن أبي الربيع سليمان بن هارون، عن أبي زكرياء يحيى بن سفيان اللالوتي عن أبي محمد بن خصيب ابن إبراهيم،

1 - الوسياني، المصدر السابق، ورقة 137.

2 - المصدر نفسه، ورقة 168.

3 - أبو زكرياء بن أبي عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس التندميرتي (300-350هـ/912-961م) حكم الجبل بعد سقوط الدولة الرستمية حوالي ستين عاما، وكان قاضيا في نفس الوقت، وهو سليل بيت اشتهر بالعلم والحكم، وقبره بمدينة جادو بقرية تمزدا، زرت هذا القبر عام 2005، ينظر : معجم أعلام الإباضية، مرجع سابق، ص 156

4 - الشماخي، ص 156.

5 - نسبة الدين عند علماء إباضية جبل نفوسة تعد نوعا خاصا من الإجازة العلمية التي يمنحها العلماء والمشائخ لأبرز طلابهم، وكذلك هؤلاء الطلاب يمنحوها لتلاميذهم فيما بعد عندما يصيرون شيوخا، وبذلك تكونت سلسلة نسب الدين جيلا بعد جيل، وهي بمعنى أخر: السند العلمي ينظر: عبد الله الباروني، سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدية، مصر : مطبعة النجاح، 1290هـ، ص 31-41.

6 - الشماخي، المصدر السابق، ص 299.

عن أبي يحيى الفرسطائي، عن أبي هارون بن يونس الجلالمي، عن أبي القاسم البغطوري، عن أبان بن رستم، عن أبي خليل الدركلي، عن أبي المنيب محمد بن يأنس».[1] ونلاحظ أن هذه السلسلة تبدأ من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي وتنتهي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.[2] واتصل سند تعليم العلماء السابقين بتلاميذهم اللاحقين جيلا بعد جيل ولم تنقطع عبر تاريخ المنطقة التي كثيرا ما كانت تمر بالأحداث الصعبة مثل الكوارث الطبيعية متمثلة في (الجفاف والقحط)، أو الحروب والمنازعات البشرية مثل (معركة مانو)، وغارات الفاطميين، وقبائل صنهاجة وزناتة، ثم غارات المغامرين أمثال: قراقوش، ويحيى بن غانية الميورقي وغيرها، وهذا ما سنلاحظه من خلال ظهور العلماء في جبل نفوسة والعلوم والفنون التي اهتموا بها دراسة، وتدريسا، وتأليفا.

1 - عبد الله الباروني، المصدر السابق، ص 38.

2 - وهي الفترة الزمنية التي تناولتها هذه الدراسة.